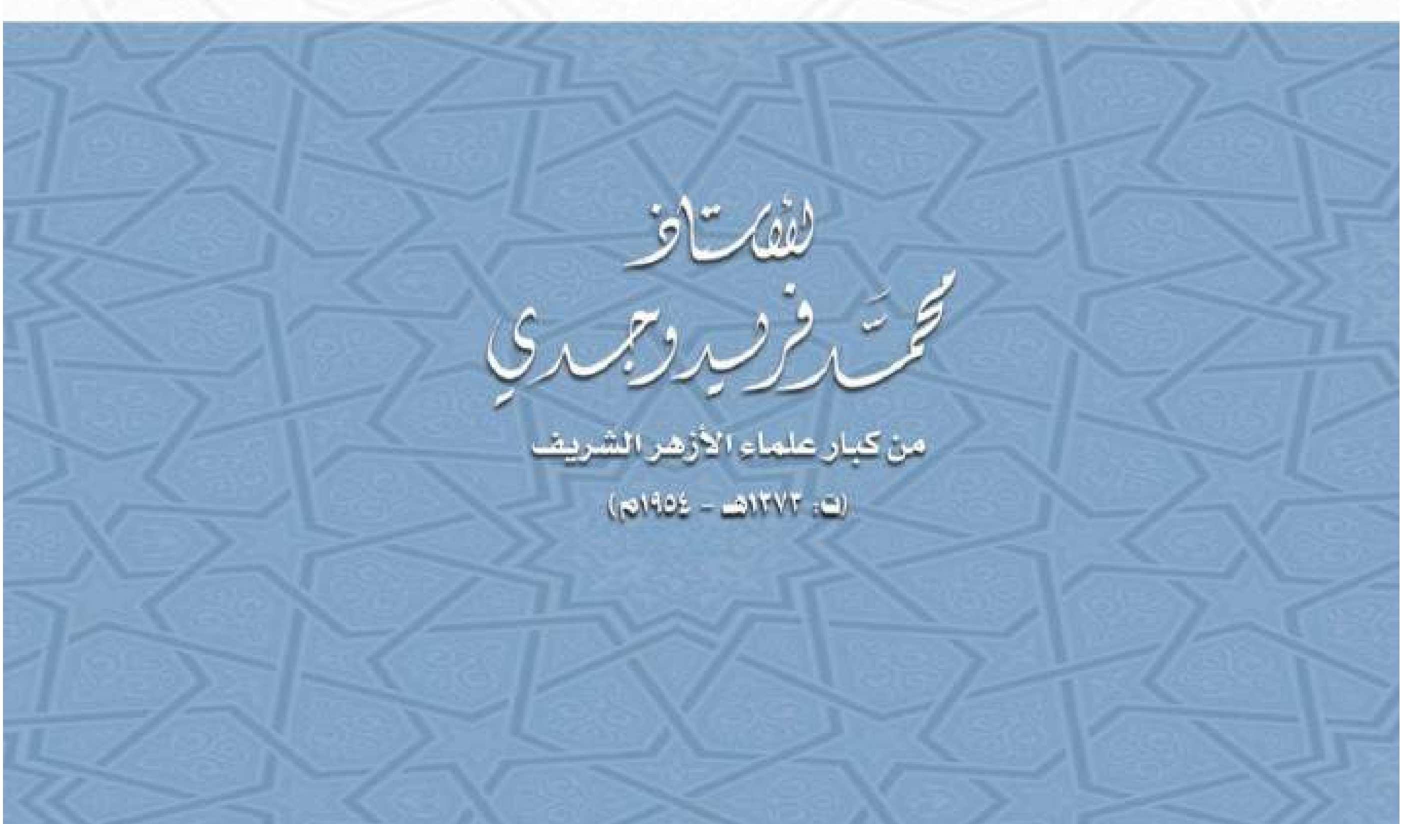
مجمع البحوث الإسلامية
السلسلة العلمية

الإسلام دين عام خالد

تحليل دقيق لمبادئ الدين الإسلامي



الإسلام دين عام خالد

تحليل دقيق لمبادئ الدين الإسلامي

تأليف

الأستاذ/ محمد فريد وجدي

رئيس تحرير مجلة الأزهر الأسبق

(ت١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م)

الجزء الأول

إشراف

أ.د/ محيي الدين عفيفي أحمد

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

وجدي، محمد فريد
الإسلام دين عام خالد
الأزهر الشريف ـ مجمع البحوث الإسلامية
١ـ الدين والوحي
٢ـ ما هو الدين على إطلاقه؟
٣ـ الإسلام وسلطان العقل والعلم
١٥٢ص، ٢٠سم
العنوان: مجمع البحوث الإسلامية ـ القاهرة

رقم الإيداع: ٢٩٢٦٧/ ٢٠١٧
الترقيم الدولى: ٢-٢٦٢-٢٠٥-٩٧٧-٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعائه واهتدى بهداه .. أما بعد،،،

فلقد كان الأزهر الشريف على مر تاريخه ـ ولا يزال ـ الحارس الأمين على الإسلام؛ عقيدةً وشريعةً وأخلاقًا، يؤدي رسالته، ويتحمل مسئوليته في المحافظة على الدين وتراثه وعلومه الشرعية والعربية وغيرها، حتى صار كعبة العلوم الدينية والعربية والثقافية في مصر والعالم، ومركز إشعاع روحي وديني وثقافي، ينشر مباديء وأخلاق الإسلام، ويوضح المنهج النبوي في مواقف الحياة المتنوعة بعيدًا عن التعصب الأعمى، أو الاضطهاد الفكري أو المادي، مراعيًا لظروف الناس وحاجاتهم، وكتب الله له القبول فتهيأت له النفوس على مدار عقود وقرون طويلة، فأصبح الجامعة الإسلامية الكبرى الفريدة في العالم بتاريخها وأهدافها ورسالتها ومنهجها ووسطيتها.

إن الأزهر الشريف يضطلع بمسئولياته ويواصل مسيرته العلمية في بيان حقائق الإسلام بمنهج وسطي معتدل يحترم التعددية الدينية والمذهبية والفكرية، ويعمل على تصحيح المفاهيم المغلوطة، لأجل حماية العقول من الغلو والتطرف والتسيب.

وانطلاقًا من هذه المسئولية كان الدور العظيم لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب في النهوض بالتبعات الملقاة على عاتق الأزهر الشريف في الداخل والخارج، ببيان حقائق الإسلام ومواجهة التطرف والإرهاب، وأهمية المجابهة الفكرية وبيان جهود الأزهر الشريف وجميع هيئاته حيث أكدّ فضيلته: أن الأزهر الشريف قد عاش أكثر من ألف عام - وسيظل - يُدرِّس المذاهب الفقهية، والمسائل الكلامية على افتراقها، والعلوم الإسلامية بمختلف أذواقها ومشاربها، لكن الأزهر قد وجد ضالته - منذ القدم - في مذهب أهل السنة والجماعة، واتخذه طوق نجاة للمسلمين كلما عضّتهم نوائب التشرذم وآفات التعصب المقيت لمذهب يراه أصحابه: هو الإسلام الذي لا إسلام غيره .. وسبيل الأزهر اليوم هو سبيله بالأمس: السعي الحثيث لجمع كلمة المسلمين، ووقوفهم صفًا واحدًا في مهب العواصف والتيارات.

إن الأزهر الشريف الذي يرفع راية «جمع الكلمة» بين المسلمين، لا يتردد في مقاومة موجات الإلحاد، والتغريب، والإفساد الأخلاقي، ولا يدخر جهدًا في مقاومة الانحراف التكفيري الطارئ، والمرفوض من جماهير الأمة الإسلامية قديمًا وحديثًا، وليس أمامه - من أجل تحقيق هذا الهدف - إلا مواصلة السعي - بصدق - لجمع علماء المسلمين على كلمة واحدة، لمواجهة الأخطار التي تهدد الجميع، ولتحقيق مصالح الأمة، ودرء المفاسد عنها، ومن دون هذا الالتقاء،

فإن النتائج لن تكون على النحو الذي نرجوه لأمتنا، وتقتضيه مصلحتها في هذه الظروف التي يمر بها العالم الآن[1].

هذا، وتتعاظم آمال وطموحات الناس حول الأزهر الشريف يومًا بعد يوم، وتتعالى صيحات النداء والفزع إليه ـ بعد الله تعالى – باعتباره الملاذ الآمن للمسلمين في العالم من الانحراف الفكري، والتطرف والإرهاب ، وقد عمل الأزهر الشريف على تلبية هذه النداءات وتحقيق الطموحات، وذلك بكل هيئاته ودواوينه ودوائره العلمية والمعرفية، ومنها: مجمع البحوث الإسلامية، الذي أسهم بجهود عظيمة في العطاء العلمي للأزهر الشريف من خلال دراسة القضايا العلمية المختلفة، إيمانًا منه بدوره العلمي في تصحيح المفاهيم الخاطئة، وبيان وسطية وسماحة الإسلام، وأهمية التيسير ورفع الحرج عن الناس.

إن ما قدمه مجمع البحوث الإسلامية ويقدمه في هذا الصدد ليؤكد جهوده الدؤبة في خدمة الحياة العلمية والعملية للمسلمين؛ في التنظيم، والتشريع، والثقافة، والحضارة، والاجتماع، والسلوك، والأحوال الشخصية، والمعاملات، وما إلى ذلك مما يدخل في صميم الحياة ومتطلباتها.

---

(١) كلمة الإمام الأكبر شيخ الأزهر أ.د/ أحمد محمد الطيب، في افتتاح مؤتمر خطورة الفكر التكفيري والفتوى بدون علم، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

إن مجمع البحوث الإسلامية وهو يؤدي دوره باعتباره هيئة علمية وبحثية وثقافية ومعرفية بالأزهر الشريف، لا ينفصم عن واقع الناس والمشكلات والتحديات التي تحيط بهم، وظهور أنماط من السلوك وألوان من المعاملات تتطلب ضرورة بيان الرأي والشرعي والديني لها؛ حتى لا ينخدع الناس بالسيىء منها، أو ينساقوا وراء الفكر المنحرف والفتاوى الشاذة التي تعاني منها مجتمعاتنا في ظل انتشار التطرف والإرهاب.

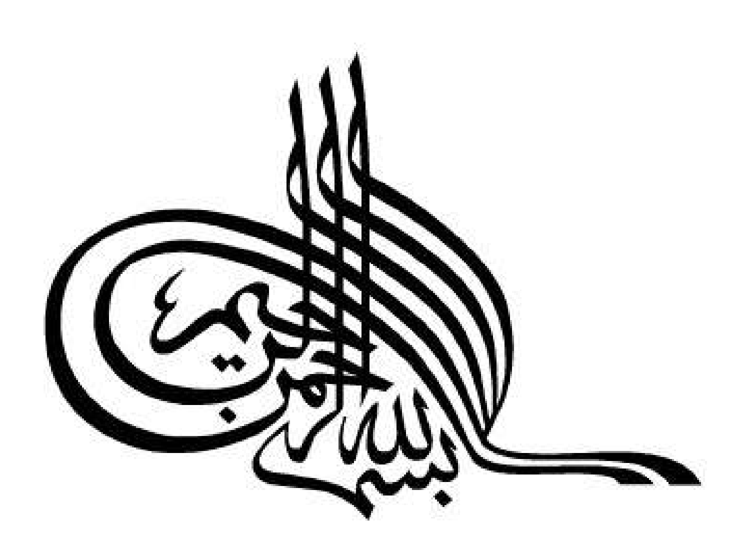
ومن المؤلم غاية الألم أن ترتكب جرائم باسم الإسلام وباسم شريعته السمحاء، وتُنفذ العمليات المدمرة مع صيحات التهليل والتكبير، ودعوى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، الأمر الذي استغله الإعلام الغربي أسوأ استغلال في تشويه صورة الإسلام، وتقديمه للعالم بحسبانه دينًا همجيًا متعطشًا لسفك الدماء وقتل الأبرياء، وأنه يحرض أبنائه وأتباعه على العنف والكراهية والأحقاد، وللأزهر موقف واضح في هذه القضايا قام بإعلانه وبيانه كأشد ما يكون البيان وضوحًا وجلاءً.

وانطلاقًا من دور المجمع ومسئولياته العلمية؛ فقد قام بإعادة طبع مجموعة من الكتب العلمية النافعة، والتي تتنوع موضوعاتها، وتلبي عددًا من احتياجات المرحلة الراهنة، حيث تشتمل هذه الكتب على قضايا ومسائل تتصل بالعقيدة، والشريعة، والأخلاق، والتفسير، وعلوم السنة النبوية، والثقافة الإسلامية في مجالاتها المختلفة؛ ليكون

الناس على بينة من أمرهم فيما يتعلق بالأمور الدينية والاجتماعية والأخلاقية، خاصة في ظل تراجع منظومة القيم الأخلاقية، وانتشار موجات التطرف والإرهاب والتكفير والإلحاد والتسيب والإنحلال، مما يستلزم معالجة هذه المسائل من خلال الفكر الوسطي الذي يعمل الأزهر الشريف على ترسيخه.

نسأل الله تعالى القبول، وأن يكون العمل خالصًا لوجهه تعالى، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية
أ.د/ محيي الدين عفيفي أحمد


بسم الله الرحمن الرحيم

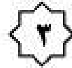
تقديم

العلامة محمد فريد وجدي
مؤلف دائرة معارف القرن العشرين
ورئيس تحرير مجلة الأزهر سابقًا[1]
بقلم الأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومي

قضى ستين عامًا من عمره المديد لم يترك قلمه يومًا واحدًا إلا لمرض، وأبقى من الآثار العلمية ما لا تقدر على تأليفه لجنة مختارة من الأفذاذ، وكان آية الآيات في أدب الحوار؛ إذ أبدى من سعة الصدر، ورحابة النفس، وجمال التواضع ما يعد غريبًا في بابه؛ لأن بعض مناوئيه كان يجادله بالتي هي أقبح، فلا يجد غير الصفح العاقل، والتغاضي البصير، بل يجد الثناء على بعض ما اهتدى إليه خصمه من حقائق كانت غائبة عن المنقود، ولا أرسل هذا الكلام إرسالًا دون دليل، فلدي الشواهد.

لقد جادل المغفور له السيد محمد رشيد رضا في بعض المسائل الدينية، وكانت في صاحب المنار- رحمه الله- حدة تدفعه إلى التعالي

(١) من تقديم الدكتور محمد رجب البيومي لكتاب «من معالم الإسلام» للأستاذ محمد فريد وجدي.



والاستفزاز دون موجب، وقد تورط فرمى مؤلف دائرة المعارف ومفسر كتاب الله بالجهل، وقرأ فريد وجدي شطط مناظره، فأغضى عنه، وأخذ يناقشه مناقشة الصديق للصديق، وأذكر أني حادثته فيما كان من أمره مع السيد رشيد رضا، فقال مبتسمًا: إن كلينا يحارب في جبهة واحدة، هي الجبهة الإسلامية، وإذا كنا نحاول الرفق مع خصوم الإسلام لنستدرجهم إلى سماع ما نقول- فإن الرفق بأصحاب الاتجاه الواحد أدعى وألزم، وهي وجهة عاقلة لا تجد من يلتزمها غير الآحاد.

كما أذكر أن الدكتور محمد حسين هيكل ـ رحمه الله ـ قد هاجم الأستاذ محمد فريد وجدي في كتاب «أوقات الفراغ» هجومًا قاسيًا، وعاود الكرة على صفحات «مجلة السياسة الأسبوعية» فرد الأستاذ في أدب ملتزم، ثم أخرج الدكتور هيكل كتاب «حياة محمد» فقابله الأستاذ محمد فريد وجدي بإطراء ضاف ممتد، وقال: إنه من الصفحات الرائعة التي سيكتب لها الخلود، وللرجل في هذه المثاليات نماذج رائعة لا يرتقي إلى مستواها سواه.

أول تعارف

كنت طالبًا بمعهد الزقازيق الثانوي، فكتبت مقالًا متواضعًا عن كتاب الرسول (ﷺ) إلى هرقل يدعوه للإسلام، ساردًا ما روته كتب التاريخ عن أثر الكتاب في نفسية الإمبراطور الروماني، وعن اجتماعه

بأبي سفيان وسهيل بن عمرو وسؤاله عن نبي العرب، ثم اجتماعه بالبطارقة ليناقشهم في أمر النبي الجديد، ثم أرسلت المقال إلى «مجلة الأزهر» التي يرأس تحريرها الأستاذ محمد فريد وجدي، وكان ذلك تسرعًا من طالب ناشئ يبعث بمقاله المبتدئ إلى أكبر مجلة إسلامية في ذلك العهد، ففوجئت بعد أسبوعين بمظروف كبير، يأتي إليَّ بالبريد، ففضضته لأجد مقالي مع رد توجيهي من الأستاذ وجدي، خلاصته أنه سُرَّ أكبر السرور باتجاه طالب ناشيء إلى الكتابة في التاريخ النبوي، وأنه يبارك هذا الاتجاه ويحبذه، ولكنه يلفتني إلى شيء هام، هو أن المقال الإسلامي الجيد ليس إعادة للأحداث المدونة بأسلوب مختلف الألفاظ، ولكن الواجب أن يكون للكاتب رأيه الخاص، وتعليقه الشخصي على الوقائع، وتحليله الدقيق للمواقف الغامضة، وحينئذ يضيف الجديد إلى القديم المتعارف، ثم رجاني في تواضع أن أحاول الاستفادة مما قال، وذلك لا يتأتى إلا بدوام المطالعة، والصبر على القراءة المفيدة، حتى تتكون لديَّ ملكة الكتابة على نحو كريم.

قرأت الخطاب عدة مرات، وكان أول خطاب يصلني من كاتب مرموق يحتل الصدارة بين ذوي الأقلام، فأعجبت به أشد الإعجاب، ولكن حافزًا دافعًا حثني على أن أرد عليه في إجلال وإكبار، فكتبت أقول له: إني شاكر توجيهه السديد، وأنه سيظل مصباحًا أستضيء به، ولكني مع ذلك أصارحه بهاجس يهجس في نفسي، هو أني أقرأ لكثير

من العلماء مقالات تعيد التاريخ دون إضافة، وينشر بعضها «بمجلة الأزهر» التي يشرف عليها الأستاذ الكبير، فما تفسير ذلك؟! وانتظرت قليلًا حتى سعدت برد الأستاذ قال فيه: إنه ارتاح كثيرًا لاستجابتي لتوجيهه، وسأجني ثمرة يانعة بحرصي على القراءة النافعة، أما المقالات التي أشرت إليها، فهي في مستوى ضعيف لا محالة ولكن كتابها من كبار الشيوخ، ولن يخضعوا لتوجيه من مثله، والصحيفة صحيفة الأزهر، وشيوخه في مقدمة كتابها؛ لذلك فهو يتجه بالتوجيه إلى أمثالي من الطلاب، معتقدًا أنهم يبشرون بأمل مرتقب إن شاء الله!

قرأت الرد فاقتنعت به، وأحسست أن الكاتب الكبير أصبح قريبًا من نفسي، بل أحسست أنه أستاذي الذي أتلقى عليه العلم، وقد سارعت إلى جمع مؤلفاته وأخذت أقرؤها بنشوة لا أجدها عند قراءتي لغيره.

زميل كريم

كان لي زميل من طلاب المعهد الثانوي هو الأديب «محمد المتولي النظامي» ـ رحمه الله ـ وقد اتكأ على جيب ومال أبيه، فأصدر كتابًا صغيرًا، تحت عنوان: «خواطر ولمحات» وبعث به إلى كبريات الصحف والمجلات من أمثال: الأهرام، والبلاغ، والمصري، والهلال، والرسالة، والثقافة، وغيرها راجيًا أن تنشر إحدى هذه

الصحف سطورًا مشجعة عن الكتاب، فلم يجد أدنى أثر يدل على كتابه، مع أنه أرسل الكتاب بالبريد المسجل، وقد طلب من رئيس التحرير أن يتكرم بالتنويه عن كتابه، أو نقده، فعز عليه أن يهمل هذا الإهمال، وجاءني شاكيًا متألمًا، فسألته: هل أرسلت نسخة إلى «مجلة الأزهر» فأجاب بالنفي، قلت: سارع بإرسال نسخة باسم الأستاذ محمد فريد وجدي فقد يعقب عليها.

ثم كانت المفاجأة حين صدر العدد الجديد من «مجلة الأزهر» «ربيع الآخر ١٣٦٢هـ» وبه صفحة كاملة من القطع الكبير تتحدث عن كتاب الطالب الزميل، وقد بدأها الأستاذ وجدي بقوله:

«تنبت في حقول الجامعة الأزهرية يراعات من الطراز الممتاز ستلعب دورًا بعيد الشأن، في إعادة مجده، وأن هذه اليراعات ليترشح منها، ولما تبلغ غاية نموها، ما ينم عما ستقوم به من رسالات علمية وأدبية نرى المجتمع الإسلامي في أشد حاجة إليها اليوم، وبين يديَّ الساعة رسالة تحت عنوان: (خواطر ولمحات) بقلم (محمد المتولي النظامي) لا أبالغ إذا قلت إنها بداية تبشر بمستقبل بعيد الأثر في تبليغ رسالة الأزهر» إلى آخر ما جاء في الصفحة الكاملة.

وقد سُرَّ الزميل سرور المندهش الفخور، وسافر إلى القاهرة كي يقابل الأستاذ شاكرًا مقدرًا، وكان مما سمعه منه، أنه يرحب بإنتاج

الشباب، ويقدمه في التعريف على إنتاج الشيوخ؛ لأن الشباب محتاج إلى من يشد أزره كي يواصل النضال، وأنه يقاسي مقاساة أليمة من أساتذة كبار لا يكتبون الجيد، ثم يطلبون أن تخصهم «مجلة الأزهر» بما تخص به النابغين من الشباب، وقد يضطر إلى ترضيتهم بسطور ضئيلة، ولكنه يفسح المجال بإخلاص واهتمام للشباب الناهض!

هذا ما قاله الأستاذ، وفيه عبرة وتوجيه وانتقاد.

إلى القاهرة

انتقلت إلى القاهرة طالبًا بكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف، فكان لقاء الأستاذ وجدي أول أمنية أحققها، فتقدمت إليه مذكرًا بما كان أرسله إليَّ من رسائل، فهش للقائي، وشجعني أن أزوره كثيرًا وكثيرًا، فحدثته عن مقالات قرأتها بقلمه وحاولت احتذاءها، وأهداني طائفة من كتبه القيمة، وقد حدثت نادرة خاصة به تعجبت لها، إذ كنت أزور قرية ريفية، وكان عامل البريد بها مسيحيًا ذا ثقافة، فجمعنا مجلس علمي عرفت من خلاله أن الأستاذ محمد فريد وجدي راسله مراسلات علمية بلغت عشر رسالات، وكل رسالة تزيد على ست صفحات كبار، فيؤلف مجموعها كتابًا قيمًا، فتعجبت كثيرًا، وقلت في نفسي لماذا لم ينشر الأستاذ رسائله العشر في صحيفة سيارة أو يجمعها في كتاب مطبوع لينتفع الناس جميعًا بثماره الفكرية، بدل أن يخص بها

إنسانًا واحدًا في قرية صغيرة، وصممت على أن أسأله عما صنع، فلما جئت لزيارته قصصت عليه ما سمعت، وما دار بخلدي، فنظر إليَّ باسمًا، ثم قال في هدوء: لقد كتبت مقالًا عن الإسلام والمسيحية في «مجلة الأزهر»، فأرسل إليَّ هذا الرجل ردًا مليئًا بالأفكار الخاطئة، وخفت أن أنشره معقبًا بدحضه، فيحدث النشر بلبلة لدى إخواننا المسيحيين لا أرتضيها، ثم خشيت أن أهمله فيظن حديثه صحيحًا وأني أهملته عن غرض، فرأيت أن أفند آراءه في كتاب خاص بعثت به إليه، ولكنه رد في إسهاب، وانتقل من موضوع إلى موضوع، فدفعني ضميري إلى الرد عليه، وكرر التعقيب فكررت الرد آملًا أن ينتهي النقاش عند حد، حتى إذا نفد صبري اعتذرت بعد عشر رسائل! ثم قال في تواضع: إن الفكر أمانة، وصاحب القلم ليس مخيرًا دائمًا فيما يكتب، ولكنه يفاجأ أحيانًا بما لا سبيل إلى السكوت عنه، فيحمل يراعه كما يحمل المجاهد في حومة القتال سلاحه، والله عليم بذات الصدور.

نزلت كلمات الأستاذ على نفسي نزول المطر على الأرض الجدباء، فأحدثت في خواطري اهتزازًا ناميًا نضيرًا بما يحمل من ثمر وعطر. وجعلت أفكر في قوله: إن الفكر أمانة، وأن صاحب القلم يفاجأ أحيانًا بما لا سبيل إلى السكوت عنه فأسأل نفسي: أكل صاحب قلم يصنع ما يصنع الأستاذ؟ ثم أمعن في الموضوع فأسأل: أهناك من أصحاب الأقلام خمسة أو أربعة يصنعون ما يصنع الأستاذ؟ ولم آيس؛

لأني أعلم أن الإسلام الصحيح إذا خامر نفسًا مطمئنة ارتفع بها إلى أرفع المستويات فأتت بما يعد شذوذًا لدى العامة وهو عند صاحبه قياسي لا شذوذ فيه.

وعجيبة أخرى، فإن الأستاذ محمد فريد وجدي عُرِفَ برأيه المعتدل فيما يسمى بتحرير المرأة، وقد عاصر قضية التحرير هذه منذ كتب الأستاذ قاسم أمين كتابه الذائع، فرد عليه حينئذ بكتاب شهير تحت عنوان: «المرأة المسلمة» كان المورد الأول لمن يريد رأي الإسلام في هذه القضية ذات الضجيج الصاخب، ثم واصل الكاتب الكبير بحوثه عن المرأة في الإسلام، وأبان وجهة الشريعة في مسائل الزواج والأسرة وتعدد الزوجات وتعليم المرأة والطلاق بما لا مزيد عليه، وقد كتب مقالًا في بعض المناسبات لم يرض أحد الوعاظ ممن لا يبلغون مرتبة التلاميذ بالنسبة للأستاذ، فكتب مقالًا تعدى فيه القول إلى القائل فوصفه بما هو مبرأ منه، وتهور في كلمات ما كان ينبغي أن تصدر من واعظ ديني يحب أن يقف عند قول الله:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل/ ١٢٥).

ونشر الواعظ مقاله في صحيفة متواضعة تنتشر في حيز محدود، ولكن الأستاذ وجدي قد اطلع عليها، فأفرد للرد عليها بحثًا ضافيًا في

عدة صفحات، ولم يتحدث عما وُجِه إليه من انتقاص لا مبرر له، بل واجه الأفكار المتنازع عليها بما يؤيد وجهة نظره بجلاء، وكان على الواعظ أن يسكت أو أن يجيب بما علمه الأستاذ من أدب، ولكنه رد في تطاول، وعرفت ما كان، فاتصلت بالأستاذ وجدي لأقول له: «إن الرد على أمثال هذا المتشنج مما يزيد من غروره»، ولكنه ابتسم قائلًا: ليست القضية قضيته ولا قضيتي، ولكنها قضية القارئ البصير، وهذا القارئ سيتلو الرأي ونقيضه ثم يجنح إلى ما يستصوب، فالرد واجب، ومحاولة تجاهله تأييد للخطأ، وهزيمة للصواب.

مقالات شتى

ظل الأستاذ وجدي قرابة عشرين عامًا رئيسًا لتحرير «مجلة الأزهر»، وكان له في كل عدد عدة مقالات بحيث لو جمعت آثاره في «مجلة الأزهر» وحدها لكونت أكثر من عشرة مجلدات، تتحدث عن أدق المشكلات الاجتماعية وترد أعتى التيارات الإلحادية، وتحلل المبادئ الإنسانية الرفيعة للدين الإسلامي الحنيف، وقد وجدت نفرًا من أدعياء البحث يسطون على كثير من أفكارها في غير حياء، ولم يشيروا إلى المصدر المنهوب أدنى إشارة، فقمت بجمع ما كتبه تحت عنوان «مهمة الإسلام في العالم» وهو أربعة وعشرون بحثًا توضح رسالة الإسلام في إنقاذ البشرية، وإخراجها من ظلماتها الدامسة إلى

مشارق النور، ثم تفضلت اللجنة العليا للدعوة بالأزهر الشريف بطبع هذه البحوث الجليلة في كتاب خاص أنيق المظهر، جيد الطبع، وقد صدر بكلمة ممتازة لأخي الأستاذ الدكتور عبد الودود شلبي أمين اللجنة العليا الذي اهتم بنشر الكتاب على أوسع نطاق، وقد غص به الذين سرقوا أفكاره، ناسين أن الحق حق، وأنه لا يعدم أنصاره، مهما غمره النسيان، ولا تزال بين بحوث الأستاذ في مجلدات «مجلة الأزهر» عدة كتب قيمة منها الفصول الرائعة التي كتبها تحت عنوان: «السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة»[1] في أكثر من أربعين فصلًا، ومنها ما كتبه تحت عنوان: «الروح الإسلامية ومدى تأثيرها في النفوس» ومنها ما كتبه تحت عنوان: «ليس من هنا نبدأ» ومنها ما كتبه تحت عنوان: «في معترك الفلسفيين» ومجلدات المجلة محفوظة بمكتبات القاهرة والمعاهد الدينية، فهل تجد هذه اللآلئ المتناثرة نظامًا يجمعها في نسق متصل، ليسهل تداولها بين القارئين.

إيثار وإنصاف

تلقى الأستاذ الإمام محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر سؤالًا عن الشرك وعقوبته الأخروية، وقد اشتط السائل حين قرر أن الإسلام

(١) تفضلت الدار المصرية- اللبنانية للنشر، بطبع هذه الفصول الرائعة في كتاب خاص، صادف ارتياح أهل العلم، وأنا بسبيل إعداد كتب أخرى للأستاذ وجدي آملًا أن ترى النور قريبًا إن شاء الله.

بالغ مبالغة كبرى في عقوبة الشرك؛ إذ جعله دون الذنوب جرمًا غير مغفور؛ إذ يقول الله عز وجل في كتابه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ (النساء/ ١١٦).

وتطرق السائل إلى تعسفات ظنية لا تتصل إلى اليقين بسبب، فأحال الأستاذ الإمام هذا السؤال إلى الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوي وإلى الأستاذ العلامة محمد فريد وجدي، ليكتب كل منهما ردًا شافيًا من وجهة نظره، وكأني بالشيخ الأكبر، وقد رأى الأستاذين مع اشتراكهما في جبهة واحدة وهي جبهة الدفاع المخلص عن الإسلام يفترقان في الثقافة العلمية افتراقًا يفسح مجالًا لوجهتي نظر تتباعد وتتقارب، وهذا ما كان؛ إذ نحا الأستاذ الدجوي منحى يعتمد في أكثره على الأدلة النقلية مستطردًا إلى أمور تمت إلى الموضوع من بعيد، وقد جاءت لأدنى مناسبة كما يقول الأزهريون. أما الأستاذ وجدي فقد استعان بمقررات العلم الحديث ليثبت أن الدين فطري، وأن الشرك نكسة طارئة كان زوالها محتمًا لدى من يقدرون الكرامة الإنسانية، وقد نقل عن أئمة العلم الاجتماعي في أوروبا، ما يدل على أن البشرية كانت موحدة في نشأتها الأولى؛ إذ عبدت الله وحده مهتدية بفطرتها الخالصة، حتى طرأ من الزلل ما أدى إلى الشرك، كما تابع آثار الانحطاط

الإنساني لدى الهمجيين من الوثنيين في بلاد مختلفة شرقًا وغربًا، وظهر مقالا الأستاذين الدجوي ووجدي متجاورين في عدد واحد، وقد شاء بعض المتحمسين لمقال الأستاذ وجدي أن يبالغ في الثناء عليه معقبًا على مقال الأستاذ الدجوي بما ينبئ عن الاستخفاف لا التقدير، وكأنه كان يريد استمالة الأستاذ بما يقول، ولكن العلامة الأصيل، قاطع المتحدث في أدب. وقال: إنه استفاد من مقال الشيخ الكبير ما أضاف الجديد إلى رأيه، وأنه نشره قبل مقاله، اهتمامًا به، واحتفالًا بما أفاض به الرجل الحجة من خواطر تمس الوجدان المسلم، وترفع من مستواه، ورجا الناقد أن يعود إلى مقال الدجوي مرة ثانية، وألا يكتفي بالنظرة الأولى، فتململ المتكلم دون أن ينطق، ثم آثر الانسحاب، فخرج بعد مدى قصير.

وشاء بعض الحاضرين أن ينتقص الناقد بعد خروجه، ولكن الأستاذ وجدي قال في هدوء: من يدري لعله كان يعتقد صحة ما يقول. وقد هديته إلى ما غاب عنه، ومن فضله أن قرأ ووازن، فهو خير ممن لم يقرأ ولم يفكر، وأحب أن تكون مجالس العلم موضوعية لا ذاتية، فهذا أولى بكرامتنا.. سمعت ذلك كله فتلقيت درسًا من دروس الأخلاق.

نظرة إمام كبير

مات صاحب جريدة الأهرام جبرائيل تقلا باشا فأفرد الأستاذ

وجدي صحيفة من مجلة الأزهر للثناء عليه بعد رحيله، ولكن بعض الذين لا يفهمون سماحة الإسلام عدوا ذلك موضع نقد لا يجوز، وسارعوا إلى الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر حينئذ يقولون في صخب: إن بعض الكبار من علماء الأزهر ينتقلون إلى رضوان الله فلا يخصهم الأستاذ وجدي بنعي ضافٍ كما فعل مع صاحب الأهرام، فابتسم الشيخ الأكبر وقال لمحاوره: أمعك مقال الأستاذ وجدي؟ قال: نعم.

قال: هلمّ فاقرأ، فأخذ الشيخ يتلو المقال منفعلًا، وكان الشيخ الأكبر قد قرأه من قبل، حتى إذا بلغ القارئ منتصف القول وهو في قمة انفعاله، قال له الشيخ سأقرأ أنا، ثم أخذ المجلة ليتلو في جمال نبرة، وحسن إلقاء، قول الأستاذ وجدي:

«إن الأزهر ومجلته لتشارك الأمة في أساها، وتذكر من فضائل الفقيد الكبير ما كان يقابل به بحوث حضرات العلماء من الاحترام، ويحلها في أرفع مكانة من الأهرام، ولطالما نشر مقالات في موضوعات علمية بحتة كان أولى بها المجلات، ولكنه كان يؤثر أن يكون عونًا للأزهر في أداء رسالته، وفي عهده الجديد، ومما يدل على عنايته بهذه الناحية، أنه عندما ثار جدال بين القائلين بجواز ترجمة القرآن والذاهبين إلى تحريمها، وانتصر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ

الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي للقائلين بالجواز، نشر الأهرام بحثه في عدد واحد على طوله، ولم يكن فضيلته شيخًا للأزهر إذ ذاك، فهذه النزعة الشريفة مضافة إلى الكثير من غيرها لا يصح أن تترك دون تقدير وإعجاب فلا غرو أن عدت خسارة الآراء الحكيمة بموته فادحة، أحسن الله عزاء أسرته، وجعل من نجله خلفًا جديرًا بسلفه العظيم».

ثم قال الأستاذ متسائلًا: أفهمتم مرمى الجملة الأخيرة؟! إن الأستاذ وجدي يعرف أن الأهرام أقوى صحف العالم العربي، وأوسعها انتشارًا، ويخاف أن تتخلى عن طريقة صاحبها الراحل في تشجيع المباحث الإسلامية، فأشار إلى الخلف باحتذاء السلف! فلو لم يكن له في مقاله غير هذا التوجيه لكان جديرًا بالثناء لا بالانتقاد!

تراجع المعترض قليلًا ثم سأل: ولماذا لا يكتب وجدي عن الراحلين من العلماء الأزهريين كما كتب عن صاحب الأهرام؟

فرد الشيخ يقول: من الدارس الخبير لهؤلاء؟ أنتم أم الأستاذ وجدي! لقد سكتم فلم تكتبوا شيئًا وأنتم زملاء وأصدقاء، وأولو خبرة بالقوم؟ أيلام الأستاذ وجدي إن سكت عن قوم لا يكاد يعرف عنهم شيئًا؟ ولا تلامون وأنتم تعرفون كل شيء ثم تقصرون! كنت أفهم أن يقول أحدكم، كتبت مقالًا في تاريخ فلان ـ رحمه الله ـ ثم حالت المجلة دون نشره! هنا يجب أن نسأل، وأعرف لم حجب المقال؟ أما أن نلوم

رجلًا محدود الاتصال بالعلماء لأنه لم يكتب عنهم، ولا نلوم أنفسنا فكثير..

وأراد الإمام المراغي أن يغير وجهة النقد الصائب، فقال: لقد نشر فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون مقالًا ممتازًا بالجريدة اليومية عن صاحب الأهرام، وذكر فيه أكثر مما ذكر الأستاذ وجدي، فلماذا لا تعترضون عليه إذن؟ لقد صادف مقال الأستاذ أبي العيون ارتياحي لأنه ينحو منحى مقال الأستاذ وجدي، فهل لديكم ما تقولون؟! وانتهى المجلس بالاعتذار.

هذا قليل من كثير أعلمه عن الرجل الكبير، وقد تحدثت عنه بعد رحيله في مناسبات كثيرة، ولا أزال أهش فرحًا بالكتابة عنه، لأنه في دنيا الخلق الرفيع مثال يحتذى، ونحن نرى كثيرين يفهمون الأصول الصحيحة للأخلاق الرفيعة ويتحدثون عنها في خطب رنانة، ومقالات دورية، ولكنهم لا يلتزمون بكثير مما يتحدثون، فإذا رأينا بين من نعرف من يلتزم بما يقول تطبيقًا مهما عاد عليه قول الحق بالمضايقة المرهقة لدى من يحترفون الدسائس والمضايقات، فإننا نفرح كل الفرح حين نجد المثل المنشود إنسانًا كريمًا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق- رحمه الله.

د./ محمد رجب البيومي

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي بحمده تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه محمد صاحب البينات، الداعي لوحدة الإنسانية والديانات، وعلى جميع إخوانه المرسلين الذين أرسلوا للعالمين على اختلافهم في الأجناس واللغات، صلاة وسلامًا وعلى آلهم وتابعيهم ما دامت الأرض والسموات.

أما بعد، فقد كنا ننزع دائمًا إلى وضع رسالة تكشف عن كنه الإصلاح العام الذي جاء به الإسلام للعالمين كافة فيكون بيد كل طالب للحق نبراسًا يهتدي به في ظلمات الشكوك التي طمت في هذا الزمن الأخير حتى أيأست أهل الثقافة من صحة الدين، وحملتهم على نبذه والمضي في أغراضهم الدنيوية، منطوية قلوبهم على الريب والشبهات. وهذه الحال تنافي الحياة الكاملة، فإن للروح مطالب معنوية كما للجسم مطالب مادية، فمن لم يصل للتوفيق بينهما عاش معيشة ضنكًا، وحشر يوم القيامة أعمى، فضلًا عن أنه يمضي حياته يدفعه شك، وتتلقفه شبهة، على حال لا تتفق والطمأنينة، ولا تستقيم والحكمة.

قلنا كنا ننزع إلى وضع رسالة تشفي الصدور من تارات الشكوك، وتقيها وخزات الشبهات، حتى كانت «مسائل في الدين» الذي تضمن

عددًا من الشبهات والاتهامات الباطلة، فطالبت الجرائد العارفين برد ما ورد فيه من الشبهات على الإسلام، فانتدبنا لهذا الأمر الجلل، وقمنا بنشر فصول في جريدة الجهاد.. وما زلنا نتتبع تلك الشبهات حتى أتينا عليها، ثم رأينا أن نتبعها ببحث في الإصلاح العام، الذي أتى به الإسلام، على ضوء العلم والفلسفة، ففعلنا، حتى أتممنا ما تصدينا له.. فكان حقًا علينا بعد ذلك أن نعمم نشره، فطبعناه في كتاب، هو هذا الذي نقدمه للقراء اليوم.

ولا أحب أن يفوتني هنا أن أثنى الثناء كله على حضرة الكاتب الكبير محمد توفيق دياب صاحب الجهاد، فقد عني بهذه الأبحاث عناية خاصة، حتى وضعها، على طولها، في قسم المحليات لكيلا تفوت أحدًا من القارئين، وهي عناية تكشف عن حب صادق للحق، وغيرة كاملة عليه، وتفانٍ صحيح على نشره، فله مني شكر لا أحصيه، وله من الله الأجر الذي يرضيه.

محمد فريد وجدي

الفصل الأول
الدين والوحي

ما هو الدين على إطلاقه؟

نحن إن بحثنا في الدين فإنما نبحث عن الأصل المعنوي الذي يقوم عليه من الروح الإنساني الصميم، لا عن الأشكال والمظاهر الخارجية التي لا تقف عند حد، وتختلف باختلاف الأمم ومكاناتها من التطورات المادية والأدبية.

انظر للإنسان ترى له وجودين متميزين، أحدهما صوري مادي مرتبط بمادة الكون ارتباطًا وثيقًا بحيث تسري عليه جميع نواميسه، وتعمل فيه جميع قواه كما تعمل في أحقر ذرة منه. وثانيهما روحاني مرتبط بشيء أرقى من مادة الكون، وعالم أرفع من عالم النواميس والقوى التي لا تشعر بوجودها، هي روح الكون نفسه.. تلك الروح التي أوجدت الكون وأخذت في تربيته وإعداده للحياة وتكميله على سنة التدرج حتى تبلغ به وبكائناته أوج الكمال الذي أعدت له.

هنا يخطر للمفكر العصري خاطر فيهمس في نفسه: هل للوجود روح حتى يصح أن ترتبط بها روح الإنسان؟ هذه شبهة مشروعة تستحق الحل والاعتبار؛ لأنها ترد على كل من يفكر في هذه المسائل.

نعم إن للوجود روحًا كما أن له مادة.. ألا ترى فيه تحليلًا وتركيبًا، وإيجادًا وإعدامًا، وتصويرًا وإبداعًا، وتوفيقًا ونظامًا، وتدريجًا وإحكامًا؟ وفوق هذه المظاهر كلها ألا ترى فيه ترقيًا مطردًا، وتكملًا

متواصلًا؟ أرأيت زهرة شذية فسألت نفسك كيف تكونت من هذه الأرض الميتة، وكيف تآلفت ألوانها الفاتنة، وتركب عرفها الفياح، ولطفت حتى لا يحس بها؟ أرأيت النبع الذي تشرب منه ماءً زلالًا؟ مم نشأ؟ وكيف لا ينضب؟ أنا أحدثك عنه: تبخر حرارة الصيف بعض مياه البحار والأرض، فتصعد تلك الأبخرة إلى الطبقات العليا في الجو ماءً خالصًا من جميع ما لابسه من الشوائب، فتتألف منها سحب لا ترى في فصل القيظ.

ولكن متى جاء الشتاء تكاثفت ورؤيت على حالة غيوم، ورحلت إلى حيث الجبال الشم، وتراكم هنالك بعضها على بعض.. فمتى ازداد الجو بردًا هطلت، لا أقول كأفواه القرب، ولكن كالسيول الزاعبة، فما يسقط على الجبال يتحول بالبرودة إلى ثلج، وما ينزل إلى الأرض يجري على ظهرها رهوًا حيث شاء. فإذا انقضى عهد المطر كان على رأس كل جبل جبل مثله من ثلج، فإذا اشتدت عليه الحرارة ذاب منه جزء ونزل على سفحه فيملأ بحيرات هنالك.. فتفيض وتسوق الماء إلى النهر المتصل بها، فيجري عبابًا متلاطمًا فتقول الأمم التي تنتفع به- ريًا وزرعًا- قد فاض النهر.. ثم يقف عن الفيضان ولكن لا ينقطع ماؤه؛ لأن تلك الثلوج المتراكمة على الجبال لا تفتأ تذوب تحت حرارة الشمس يسيرًا يسيرًا لتمد الأحياء دائمًا بالماء، وإن كانوا لا يفكرون في ذلك طرفة عين.

وهل حانت منك لفتة للطيور في أوكارها، فرأيت كيف يتعاون الذكر والأنثى على بنائها، وتزويدها بكل ما يجعلها صالحة لإيواء بيضهما.. وكيف يتبادلان احتضانها ويعملان على فقسها، ثم كيف يترافدان على تربية صغارهما وتهيئتها للحياة على مثالهما؟

وهل راقبت الحشرات في ضعفها وسذاجة تركيبها، ورأيت كيف تهتدي إلى ما يصلحها ويحفظ أنواعها، وكيف تقوم من ذلك على أساليب ووسائل تعجز أقوى العقول على تدبيرها؟!

وهل شاهدت أنواعًا أخرى من الحيوانات، فرأيت كيف تقوم على أصول وقوانين ومحاولات تصون بها ذواتها وتحفظ أنواعها؟

كل هذه النظرات التي تجعلك تفاجئ الحياة وهي تعمل، تريك رأي العين أنها تستخدم المادة لأغراضها وتهيئها لإنتاج الصور التي يعجز الفكر عن استيعابها.

فإذا كان لا بد من إدراك أي الوجودين أصل للآخر، الوجود المادي المحسوس أم الروحاني المحجوب، حفزك النظر المجرد على الاعتقاد بأن الحياة هي أصل المادة، لا أن المادة أصل الحياة.. وهذا هو الرأي الذي انتهى إليه علماء البيولوجيا. يقول العلامة الكبير «توماس هكسلي» أحد أعضاء المجمع العلمي الإنجليزي في كتابه «المدخل على ترتيب الحيوانات":

«في كل المملكة الحيوانية لا يوجد مجموع فوق هذا المجموع في تأييد هذا المذهب القوي الذي أومأ إليه «جون هنتر» أكثر من مرة وهو «إن الحياة هي علة الأجسام لا أنها نتيجة لها»؛ لأنه في هذه الصور الدنيئة للحياة الحيوانية (يعني جماعة الأميبا من الكائنات ذات الخلية الواحدة) لا يصادف الباحث مهما توسل بالآلات الدقيقة التي نملكها اليوم أي أثر للتركيب الجثماني فيها. فإن هذه الأحياء لا شكل لها ومجردة من الأعضاء ومن الأجزاء المحدودة، ومع ذلك فهي تملك الخصائص والمميزات الأصلية للحياة، حتى إنها لتستطيع أن تبتني لنفسها قواقع ذات تراكيب معقدة أحيانًا وعلى غاية ما يمكن من الجمال.

هل هذا الترتيب المحكم، والتكوين المنظم، والأسباب الموجدة للكائنات، والعلل الحافظة لها، والعوامل الدافعة لترقيتها، والنواميس العاملة لتكميلها.. هل كل هذه المجموعة الضخمة من الأسباب والعلل والنواميس والعوامل، في كون يزخر بالأحياء، ويفيض بالكائنات، قائمة على مجرد المصادفة والاتفاق، ومجردة من روح يدبرها ويهيمن على أطوارها؟

تستنيم بعض العقول إلى كلمة «الطبيعة» فيجدون فيها سكنًا لأرواحهم بل خدرًا لعقولهم.. ولو تأملوا لعلموا أن «الطبيعة» كلمة

تطلق على المجموعة التي نعنيها من الأسباب والعلل والنواميس والعوامل، فإن راق لبعضهم أن يحتفظ بهذا اللفظ قلنا هل «الطبيعة» تستطيع أن تعمل بغير روح، وأن تفعل مجردة عن الحياة؟ لا، فلا بد من أن يكون للوجود حياة عامة وراء ظواهره المختلفة، كما أن للجسم الإنساني حياة خلف ظواهره المعيشية.. فإن ثلج صدر قارئنا على تنور هاتين الحياتين، ساغ لنا أن نقول إنهما مترابطتان لأن إحداهما مشتقة من الأخرى، فالحياة الإنسانية قبسة من الحياة الوجودية، كما أن الجسد قطعة من مادته الأرضية.. فالشعور بهذا الترابط بين الروحين، والحنين إلى زيادة توثيق عراهما، وتعريض صغراهما للاستمداد من كبراهما، هو أصل الدين وينبوعه في النفس البشرية.

فالدين بهذا الاعتبار شعور بالارتباط الطبيعي بين الإنسان وروح الكون.

وإذا كان الدين هو هذه العلاقة الطبيعية بين الإنسان وروح الكون، في مستوى الشعور بالعلاقة الموجودة بين مادته ومادة الكون.. فلا يستطيع مهما بذل من الجهود أن يتخلص من الشعور بهذه العلاقة، ولا أن يعفي نفسه من العمل لها. فإذا قلنا: إن الإنسان لا يمكنه أن يعيش بلا دين فلا نكون مغالين، بل نكون مماشين لطبيعة الأشياء.

فإذا كان قد أصاب الدين فتور في بعض الأحيان، فذلك في مظاهره الخارجية لا في جوهره وحقيقته، ولا في شعور النفس بالحاجة إليه.

وقد قال: بهذا القول علماء الفلسفة العصرية التي نشأت في ربوع المدنية المادية.. فهذا الفيلسوف الكبير «أجوست سباتييه» يقول في كتابه «فلسفة الدين»:

«لماذا أنا متدين؟ إني لم أحرك شفتي بهذا السؤال مرة إلا وأراني مسوقًا للإجابة عليه بهذا الجواب وهو أنا متدين لأني لا أستطيع غير ذلك، فالتدين لازمة معنوية من لوازم ذاتي، يقولون ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج، فأقول لهم: قد اعترضت على نفسي كثيرًا بهذا الاعتراض نفسه، ولكني وجدته يزيد المسألة تعقيدًا ولا يحلها، وأن ضرورة التدين أشاهدها بأكثر قوة في الحياة الاجتماعية البشرية، فهي ليست أقل تشبثًا مني بأهداب الدين».

إلى أن قال: «وإذن فالدين باقٍ وغير قابل للزوال.. وهو فضلًا عن عدم نضوب ينبوعه بتمادي الزمن، نرى ذلك الينبوع يتزايد اتساعًا وعمقًا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفي والتجاريب الحيوية المؤلمة».

وقال الفيلسوف الكبير: «أرنست رينان» في كتابه «تاريخ الأديان»:

«من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه، وكل شيء نعده

من ملاذ الحياة ونعيمها.. ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والجسدية، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى.. بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يهدف إلى حصر الفكر الإنساني في المضائق الدنيئة للحياة الأرضية».

* * *

بحث في الوحي

أشد ما ترتطم به عقول المعاصرين من الشبهات العلمية، مسألة الوحي.. فيستبعدون أن الله قد أوحى إلى رجال منهم ليحملوا إلى الناس من التعاليم ما يقيمهم على الصراط السوي في حياتهم الدنيا، وما يفيدهم من العبادات في حياتهم الأخرى.. ونحن نتناول هنا هذه الناحية الخطيرة.

إن روح الوجود الذي صور الكائنات كلها على أي أساليب الإيجاد شاء- سواء أخلق كلًّا منها خلقًا مستقلًّا أم اشتق بعضها من بعض على قاعدة التحول التدريجي- لم يقطع أمداده لها طرفة عين. وكيف يعقل غير ذلك وهي مستمدة من وجودها منه، وسابحة فيه سبح الديدان في المحيط الزاخر.. منه وجدت، وبه تحيا، وفيه تفنى.

ومما يجب لفت النظر إليه أن تدبير روح الوجود للكائنات وشدة اتصاله بها، أظهر ما تكون في الكائنات الدنيا من الأحياء، ثم يأخذ اتصاله بها في الخفاء حتى يصل الأمر إلى الإنسان، فيخيل إليه أنه مستقل عنه ولا يعتقد باتصاله به إلا بإعمال الفكرة وإمعان الرؤية.

خذ في يدك بذرة تفاحة وتأملها، تجدها تكاد لا تفترق عن الحصاة الميتة.. فإن قيل لك، ولم تكن رأيت ذلك من قبل، أن هذه البذرة توضع في الأرض فتنبت، ويأخذ هذا النبات في النمو حتى يصير شجرة،

ثم تزهر فتنفرج زهوره عن ثمر التفاح اليانع في مذاقه الشهي، وأريجه الشذي، ولونه الوردي، وملمسه الحريري، لكذبت محدثك واتهمته بالازدراء بك، والسخرية منك.. ذلك لأنك لا تعقل أن هذه البذرة الغافلة عن وجودها تنفرج متى غرست في الأرض وسقيت بالماء عن جذير وسويق، الأول يغوص في الطين يتطلب مواده الذائبة وأملاحه المقومة، ولا يرتفع إلى سطحه.. والثاني يرتفع إلى سطحه متطلبًا الهواء والنور، ومهما حاولت أن تغير وضع هذين العضوين، فإنك لا تستطيع.. أليس هذا الأمر وحده الذي ليس له علة معقولة، يدلك على فعل الروح العام فيه، وإلى دفعه لكل من هذين العضوين إلى موضعيهما اللذين لا بد من وجودهما فيهما لأداء وظيفتيهما في الإنبات؟

أليس هذا الأمر وحده يدل على هداية الحياة العامة لهذا النبات الضعيف، وعلى دفعها لكل عضو فيه إلى موضعه؟

ثم إذا تأملت كيف يهتدي ذلك الجذير- وهو مغروس في تربة زاخرة بالمواد المختلفة التي لا تحصى كثرة- لانتخاب العناصر التي تتألف منها شجرة التفاح، وتنتج زهرتها وتثمر ثمرتها، وتؤاتيها بشكلها المعروف ومذاقها المعهود.. لو تأملت في هذا وفي جميع شئون المملكة النباتية، فاجأت الروح العام وهو يهدي هذه الكائنات

الضعيفة إلى ما يصلحها ويفعل في تكوينها فعلًا مباشرًا لا يعجز عن إدراكه إلا من ليس له بصر.

ثم دع المملكة النباتية، وارتق إلى المملكة الحيوانية.. وانظر إلى تلك الكائنات الساذجة المكونة من خلية واحدة، وهي أبسط ما يمكن تصوره منها، تجدها مزودة بالعلم الذي يحفظ وجودها ويصون نوعها، وبالمحاولات التي لا غنى لها عنها في الدفاع عن نفسها وفي الاحتيال للخلاص من المآزق التي تتعرض لها.

فمن أين أتى لهذه الكائنات هذا العلم وهي محرومة من الأعصاب ومن المخ معًا؟ أليس هذا العلم لديها نفثًا من روح الوجود نفسه؟

من الذي أدرى البعوضة أنها يجب أن تبيض على سطح الماء الراكد، وأنها مضطرة لوضع بويضاتها في قوارب صغيرة تعوم على سطحها، ومن الذي وضع في جثمانها أوعية تحتوي على مادة تجف بمجرد ملامسة الهواء تصلح لعمل تلك القوارب، ومن أشعرها بأن تلك المادة تندفع إلى الخارج بالضغط عليها، ومن لقنها صناعة تلك القوارب واضطرها لوضع بويضاتها فيها، وهي لا تعيش حتى ترى ذريتها خارجة منها، ولم تر هي أمهاتها تفعل ذلك قبلها؟ وقس على البعوض جميع أنواع الحشرات والهوام مما لا تحصى أنواعها كثرة.. وكلها تلهم إلهامًا، وتعيش على أعجب ما يتخيله المتخيلون من التصرفات المدهشة!

هـذه ليسـت أمـورًا غريبـة فحسـب، ولكنهـا محيـرة للعقـل أيضًـا ومجبرة له على الاعتقاد بأن عـالم الحيوانـات- على اختلاف أنواعـه، وتباين وسائل حياته، وتعدد محاولاته- يحيا تحت عناية الـروح العامـة تمده بالإلهامات الضرورية لحفظ ذاتـه ونوعـه، بحيث لـو تركتـه طرفـة عين لهلك.

أتـرى أن هـذه الحيوانـات كانـت تسـتطيع أن تبقـى في معمعـان هـذه الحروب الحامية، التي تشـنها الطبيعـة عليهـا بعوالمهـا المختلفـة، لـولا هدايـة الـروح العامـة لهـا وعملهـا المباشـر علـى صيانتها مـن معاطبهـا، وإرشادها إلى وجوه نجاتها؟

لقد وصلنا إلى الإنسان، فهل يتلقى مددًا من الروح العام على نحـو ما يتلقاه النبات والحيوان؟ أما المدد الجثماني فلا يمكن التشكك فيه، فإنـك تبصـر ولا تـدري مـا يحـدث في بلوريـة عينيـك مـن التحـدب والانبسـاط علـى حسـب أبعـاد المرئيـات، ولا بحـدقتيهما مـن الضـيق والاتساع على قدر كثرة النور وقلتـه، وتأكـل وتهضـم وأنـت غافـل عمـا يحدث في أحشائك من التحليل والتركيـب، والتصفية والتصعيد حتـى ليخرج من الخبز والخضـر والفاكهـة التـي نتعاطاهـا عضـل ودم وعظـم وشعر وأوتار وغضاريف وأعصاب.. فمن الذي يدير كل هذه الأجهـزة

الدقيقة وأكثر أهل الأرض لا يعلمون من أمرها شيئًا، ومن الذي يهديها إلى وظائفها ويقودها إلى ما يقومها ويصلحها؟

هذا حال الجثمان.. فهل يتلقى الروح الإنساني مددًا عقليًا من الروح العام؟

لقد أريتك كيف أن الحيوانات تلهم ما تعمله إلهامًا، وتعجز عن أن تنتجه بعقولها إنتاجًا.. فشريعتها مبثوثة في جميع آحادها على السواء، فليس فيها علماء وجهلاء وأوساط، ولكن كل فرد منها يلهم ما يصلح له إلهامًا فيكرر العمل الذي كانت تعمله الكائنات التي من نوعه منذ وجدت على الأرض.. فلما وجد الإنسان، وكان قريبًا من الحيوان في سذاجته وتجرده من الأوليات الضرورية لوجوده، تولاه الوحي لا من طريق الإلهام والسوق، ولكن من الطريق التعليمي، ما دام قد استأهل هذه المرتبة فيولد الإنسان مجردًا من كل علم وكل حيلة، فيهديه أبواه وقبيله والمجتمع الذي يعيش فيه إلى وجوه العمل.. فأصبح للوحي سبيل خاص بالإنسان مناسب لكرامته، وهو أن يفضي الروح العام، بما يجب أن يعلمه الكافة ويعملوا به، إلى واحد منهم، فيقوم بنشره بين معاشريه من نوعه.

هذا هو الذي حدث فعلًا، فإن الإنسان قد اعترف منذ أقدم أيامه بما تركه من الآثار، وما نقشه على الأحجار، بأن آحادًا منه كانوا يتلقون

الوحي في أحوال خاصة من حياتهم، فينشرونه في قبيلتهم تحت اسم ملة أو ديانة، فيتلقاه الناس بالقبول أو يرفضونه، إيثارًا لوحي أقدم منه.

فإذا كان هذا الاعتراف من الأمم منذ القدم لا يكفي في إقناع الآخرين بالفلسفة الحسية، بحجة أن أولئك الأقوام الأقدمين في جهالتهم وعمايتهم لا يصح أن يوثق بأقوالهم فيما يسمونه وحيًا، ولكن قد يكون ذلك مذهبًا لرجل رشيد منهم لقنهم إياه تحت هذا العنوان ليعملوا به مجبرين لا مخيرين.

قلنا قد يكون ذلك، ولكن الواقع أن الإنسان وهو يجتاز دور الحيوانية «عفوًا فإني أخاطب أهل الفلسفة الحسية»، لا يعقل أن يكون قد قطع فجأة عن حالة الإلهام الحيواني الذي تولى أمر أسلافه طوال عهدهم بالوجود.. ولكن الذي يعقل ويساير الطبيعة أن يكون قد انتقل من ذلك الدور تدريجيًا، حتى لا تعمى عليه وجوه الحياة فيبيد، ولم يعهد في حوادث الوجود الخبط والجزاف كما هو معلوم.. وعند تمام تميزه عن العالم الحيواني كانت روحه بحكم هذا التدرج نفسه قد تطورت تطورًا ذريعًا، فأصبحت قابلة للاتصال بالروح العام من طريق روحاني محض.

يقول قائل: ما معنى اتصالها بالروح العام من طريق روحاني أليس هذا من قبيل تشبيه الماء بعد الجهد بالماء؟!

نعم هو كذلك لمن اكتفى من العلم بما تلقاه في الكتب المدرسية المحدودة.. ولكن العالم منذ سنة ١٧٧٠ أي منذ أن أعلن الدكتور الألماني «مسمر» بأنه اكتشف سيالًا حيويًا في الإنسان أسماه المغناطيس الحيواني، وهو جاهد في تحقيق وجود هذا السيال ومعرفة خصائصه بواسطة التنويم الصناعي، وقد ثبت أخيرًا وصار في عداد المعارف الأولية لدى الباحثين، بأن في باطن كل منا عقلًا مستقلًا غير عقلنا العادي أرفع وأوسع مجالًا منه، هو الذي يوحي إلى الإنسان بالميول الطيبة، وينهاه عن المنكر والبغي. وهذا العقل الباطن هو الذي يدير جثمانه، ويدير أجهزته وأعضاءه، ويصلحها إن اعتراها عطب.

هذا العقل الباطن الذي لا يحس الإنسان بوجوده، متصل بالحياة الروحية العامة اتصالًا مباشرًا.. فهو يتلقى عنها ما يناسب درجته من المعارف، ويحاول أن يعكسه على صاحبه من طريق الإلهام. فهل يعقل ألا يكون هذا العقل الباطن قد وصل في بعض الناس إلى درجة رفيعة بحيث يستخدمه الروح العام لإيصال شريعة جديدة إلى شعب هو في حاجة إليها

كيف يعقل خلاف هذا وهو الذي حدث فعلًا في كل أمة وفي جميع أدوار التاريخ.. فلم تخل الأرض قط من داعٍ إلى الحق وإلى الفضائل، معلنًا أنه أرسل لأداء هذه المهمة إرسالًا، فتراه يعرض نفسه للموت في

سبيل تعميم دعوته، ويصبر على البأساء والضراء متبعًا سمت الصالحين من الزهد في الدنيا والتواضع وإيثار الفقر حتى ينجح فيما تصدى له أو يقتل في سبيله.

إذا وجد بين القراء من ينكر العقل الباطن ويتشكك في اتصاله بالعالم الروحاني مباشرة، ومن لا يقول: إن للإنسان حياتين: حياة عادية هي ما هو عليه في حالته المعهودة، وحياة روحانية يجليها التنويم المغناطيسي بما لا يدع للإنسان شبهة، ولا يعترف بأن الإنسان في حياته الروحانية يعيش في عالم علوي يزخر بالحقائق الإلهية، والمعارف السماوية، فينال منها على قدر استعداده، ويؤديها لعقله العادي، محاولًا إعداده للترقي والتكمل.. قلنا إذا كان بين القراء من ينكر هذا كله، فليس لنا من وسيلة لإقناعه إلا بلفتة للتوسع في قراءة ما كتبه العلماء الباحثون في مسألة التنويم المغناطيسي، والعقل الباطن، على الأسلوب العلمي الصارم.

فإذا كان من الناس من يتجرأون على التكذيب بهذه الحقائق، مع إعفاء أنفسهم من الاطلاع على ما كتب فيها، فهؤلاء أمة وحدهم.. وليس يضير الحقائق أن يجافيها عدد محصور من الجامدين.

ماذا يتطلبه الناس من الدين؟

الناس من ناحية الثقافة العقلية ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: علماء منتهون، وأوساط متعلمون، وعامة مقلدون.. وبين هذه التقاسيم العامة درجات تكاد لا تحصى، ترجع كلها إلى عقلية رئيسية مع خلاف لا يعتد به في مثل هذه البحوث. وكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث تتطلب من الدين ما يناسبها من الغذاء الروحاني.. فما يكفي الطبقة الدنيا لا يكفي ما فوقها، وما يقنع هذه لا يقنع الطبقة العليا من المنتهين، ولا مناص لنا ونحن نبحث في الدين العام الخالد، أن نلم بكل ما تتطلبه هذه الطبقات الثلاث لنرى هل هنالك من دين يفي بحاجاتها كلها، فيكون هو الدين العام الخالد، أم لا، فتلجأ الإنسانية إلى شيء جديد؟

لا يتطلب العلماء المنتهون أن يأخذوا عن الدين آدابًا وأخلاقًا، ولا أن يتعلموا منه أسلوبًا في الحياة ولا دستورًا في المعاملات يتفق وأصول العدل والإخاء والمساواة، فإنهم مشرعو المذاهب، وبناة الأساليب، وصاغة الأصول.. وإنما هم يتطلبون من الدين أن يصلهم بروح الوجود إيصالًا مباشرًا يستمدون منه حياة لأرواحهم ونورًا لعقولهم، وسكنًا لنفوسهم، ومطمئنًا لوجدانهم.

يشغل هؤلاء العلماء المنتهين شاغل ضخم أذهلهم عن كل ما

سواه، وهو هذا الوجود العظيم، وما يعمل فيه من القوى، وما يتخلله من الأسرار، وما يتراءى فيه من الآيات، وما يحيط به من العلل الأولية، والعوامل الخفية، وما وراء ذلك كله من الروح المدبر والأصل الأصيل.

إن هؤلاء العلماء قد قتلوا المذاهب بحثًا ودراسة، فازدادوا في بحوثهم حيرة.. فكلما ارتفع أمامهم حجاب انفرج عن مجهول أشد غموضًا مما سبقه، وكلما فتحت أمامهم باحة، تراءت لهم منها غاية قصية لا مناص لهم من الوصول إليها، قبل أن يطمعوا فيما بعدها.. وهم من هذا تحيط بهم مسائل لا يتخيلون لها حلًا، وتقوم في وجوههم حوائل لا يستطيعون لها نقبًا، وتساورهم مشاكل لا تترك لهم بسواها شغلًا.. فإذا ألقوا نظرة إلى أنفسهم وإلى الوسائل التي يتخذونها لكشف هذه الجمد عن عقولهم، تكشفت لهم عن ضعف يدفع إلى القنوط من الوصول، وقصور لا يدع لها مطمعًا في أقل محصول!

فإذا أعلن أمثال هؤلاء بأنهم في حاجة إلى التدين، فإنهم يعنون من ذلك أن يلقوا بأنفسهم بين يدي قيوم السموات والأرض يتنسمون من ناحيته نفحة، تكون ـ وهم في وطيس هذا البحث ـ سكنًا لأرواحهم، وملاذًا لشعورهم، حتى لا تحترق رؤوسهم لوعة، وتتمزق صدورهم حيرة.

فالتدين لدى هؤلاء صعود بالروح إلى بارئها، واتصال به في عالمها، واستمداد منه في تلهفها.. فإن ازدادوا في لياذهم بها حيرة كانت حيرة المحب الواله يتحرى سبل الوصال، لا حيرة الوامق اليائس أغلقت في وجهه أبواب الآمال.

هؤلاء المفكرون الكبار لا يثنيهم عن دين أن يكون فيه ما يحتاج لتأويل، أو يستعصي على التعليل.. فهم يعزون كل ذلك إلى عوامل توجبها البيئة القاهرة، وتستعديها عقلية الشعوب المتأخرة، ولا تتجرد من مثلها المثل العليا حتى في الطبيعة نفسها، على أنها الأصل الأصيل للكائنات المادية، لا يثنيهم عن دين كل هذا إذا كانت روحه تصلح أن تؤثر في أرواحهم، وأسلوبه يتآخى وأسلوبهم، وكانت سبيله تخلو من العثرات، وغايته أبعد من أن تنال بالتخيل والتفكير.. فهم قد ألفوا المجاهيل حتى كرهوا أن يتخيلوا لها حلًا، وأنسوا ببعد الغايات حتى أنفوا أن يتوهموا لها حدًا؛ لأنهم يرون هذه العظمة المحيطة بهم لا يصح أن تنكشف أسرارها لعقل أرضي مهما بلغ من القوة، ولا أن يحيط بحقيقتها نظر مادي مهما نفذ في سرائر الأمور.

ولا بد لي من التنبيه هنا إلى أن هؤلاء العلماء الأعلام يرون أن لا حاجة بهم إلى الأديان المعروفة، فهم يعتمدون في تدينهم على ما غرس في الفطرة الإنسانية من الدين والحق. وقد حمل بعضهم اليأس من

الأديان الموجودة على وضع دين دعوه «الدين الطبيعي»، فصلنا أصوله في كتابنا «المدنية والإسلام».

أما الأوساط من طائفة المتعلمين، ومن في مستواهم من المفكرين، فيتطلبون من الدين أن يكون واضح المحجة، ناهض الحجة، يماشي العقل في غاياته ومراميه، ويساير الطبيعة في أوامره ونواهيه.. لا يضع للرقي حدًا، ولا يسد على العقول مجالًا، ولا يحرم ما تشعر النفس بضرورته من المباحات، ولا يضيق ما اتسع من المحاولات، وأن يكون مرنًا يتسع لما يجد من الآراء العلمية، ولا يستعصي على ما يثبت أو يرجح من المذاهب الفلسفية، وما يقوم الدليل عليه من الشئون الكونية.

فهم يرجون من الدين أن يقتصر على إرشادهم إلى طريق الأخلاق والآداب والفضائل والكمالات دون أن يحاول تحديدها، تاركًا للعقول حرية التطور في الشعور بها، وبلوغ الغاية التي تنتظر منها.

فإذا كان لا بد للدين من شريعة، تطلبوها شريعة عامة تنص على الحقوق الطبيعية، وعلى وجوب تحري العدالة، وعلى إقامة الأحكام على أرسخ الأصول وأحكم القواعد، دون أن تضع للنزعة التشريعية في الإنسان حدودًا لا يمكن تعديها، وللحوادث والوقائع أحكامًا لا

يصح أن يعدل عنها إلى غيرها، مما يثبت أنه أدنى إلى العدل مما وضعه القدماء لها.

فهم يريدون أن تكون شريعة الدين أصولًا أولية ومبادئ رئيسية، تصح أن تكون دستورًا للمشرعين، لا أن تكون شريعته تفصيلية إن انطبقت في عهد من العهود على الحوادث شذت عنها في عهد آخر، وباينتها في أكثر إجراءاتها، وفي الذرائع التي يتذرع بها للوصول إلى توضيح الحقائق.

فهذه الطبقة بما تسرب إلى كثير من آحادها من الشبهات الفلسفية، وما تشبعوا به بحكم تربيتهم المدرسية أو المخالطات الاجتماعية من الأصول العلمية، وبما أثر في نفوسهم مما تكتبه المجلات الإلحادية من الاستهانة بالدين، تنشأ بهم حاجة قوية إلى الدليل المحسوس، وإلى الحجة القوية فيتطلبون أن يجدوها في الدين نفسه، لا في القائمين عليه من حفظته، فهم على ضعفهم أشد على الدين من العلماء المنتهين، فلا يغفرون منه ما يغفره أولئك، ولا يتسامحون فيما يتسامح به كبار العقول، لذلك يكثر الملحدون في هذه الطبقة، ويجمد بعضهم في الإلحاد إلى حد الاستعصاء وبالنظر لعدم شعورهم بهول ذلك المجهول الضخم، الذي يشغل العقول القوية ويصرفها عن كل أمر غيره، تراهم يذهبون في إلحادهم إلى حد الاستخفاف والسخرية ممن

يؤمنون بشيء فوق الطبيعة المادية.. فإن عرض ذكر كبار العقول، وعرض عليهم ما قالوه في الدين المطلق، هزئوا بهم وقالوا: إن العلماء المنتهين لطهارة نفوسهم، وسلامة صدورهم، يقبلون الانخداع، ولا يوثق بعقولهم في غير بحوثهم التي مرنوا عليها من عمرهم سنين.

هذه الطائفة إن شعرت بالحاجة إلى دين صحيح، تخيلته لينًا سائغًا خاليًا من كل ما يحتاج لتأويل، أو يستعصي على الدليل.. الدليل الذي يرتضونه هم لا ما يرتضيه أساتذتهم العارفون.

ولما كانت هذه الطائفة هي سواد المتعلمين والقابضين على أزمة الأعمال، كان موقف الدين حيالهم وبخاصة في هذا العهد- عهد الشكوك والمجادلات- من أصعب المواقف. وكثيرًا ما هاجمه أفراد من فطاحل كتابهم على طريقة الدس، فقوضوا دعائمه في نفوس كثير من طلاب العلم، فأخرجوهم إلى باحات الإباحة الحيوانية؛ لأن أفراد هذه الطبقة لا يصادفون في أنفسهم الشكائم التي تردعهم عن الغي، فيخوضون في حمأة الرذائل ويكونون مثالًا لغيرهم في التحلل من جميع التبعات الأدبية.

أما الطبقة الثالثة- وهم العامة- فهم مقلدون في دينهم ودنياهم، وإنما ينحصر تحديهم في أهل الطبقة الثانية فيتلقون عنهم في صمت جميع ما يفعلون وما يقولون، ثم يصبونه في قوالب عاميتهم، فيصبح إن

كان ما تلقفوه شرًا، رجسًا على رجس.. فهؤلاء في الواقع مجني عليهم يستحقون الرحمة من الوعاظ والمرشدين.

هذه حال الطبقات الثلاثة المكونة للجماعات البشرية في هذا العصر حيال الديانات، وما يتطلبونه من دين.. فلم يبق علينا إلا النظر في: هل الإسلام يفي بجميع هذه الحاجات العقلية والنفسية فيكون هو الدين العام الخالد؟

شأن الإسلام مع العلماء المنتهين

قلنا: إن العلماء المنتهين لا يهمهم من الدين إلا أن يصعد بأرواحهم إلى بارئها، لتتصل به في عالمها، وتستمد منه القوى في عروجها.. أما ما عدا هذا من الأغراض فلا يعنيهم أمره، لاستغراق عقولهم في ذلك المجهول الضخم الذي يحيط بهم. والإسلام من هذه الناحية أصلح ما يكون سكنًا لأرواحهم، ومتنسمًا لعقولهم، وموجهًا لميولهم.. فهو إن شاءوا هجم بهم على معقل اليقين، فنقلهم من عالم الروح إلى درجات لم يحلموا بها، وإن شاءوا جال بهم من عالم الشهادة في نواحٍ تزيدهم إكبارًا لهذا المجهول الضخم، وتضاعف من اهتمامهم بكشف الحجاب عنه والوصول إلى سر لبابه..

أول ما يفاجئهم من هذا الدين قوله تعالى:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم/ ٣٠).

فإذا قرأوا هذا غشيهم من احترامه ما غشيهم، وخالط هذا الاحترام قدر كبير من التعجب والدهش.. فإن دينًا مضى عليه نحو أربعمائة وألف سنة ينص كتابه على أن الدين فطرة في النفس، وأن هذه الفطرة نفسها هي الدين الحق.. لهو أمر يقضي بأشد درجات الحيرة، ويدعو إلى تفكير عميق في حقيقة مصدره فإن مثل هذا القول البعيد الغور لم يتأت لكبار الفلاسفة الأقدمين، ولا يمكن أن يدرك خطورته البشر إلا في هذه القرون الأخيرة، ومؤداه أن النفس مفطورة على التدين، وأن الإسلام هو نفس تلك الفطرة. فالإسلام ليس بتقاليد وموروثات وآراء وشروح، ولكنه تلك الفطرة مجردة من كل شائبة.. وهي تؤدي بالإنسان- بقواها الذاتية- إلى أقوم الطرق، وأعدل المذاهب، وتكون هذه الطرق والمذاهب عرضة للتطور على نسبة ما يدخل فيه عقله من التطورات المتعاقبة.. فلا يعقل والحالة على ما ترى أن يوجد مذهب أرسخ من هذا المذهب أساسًا، ولا أشد على النقد مراسًا، ولا أبعد في المعقولات غورًا. وقد تسمى بأخص صفاته وهو «الإسلام»، ومعناه الاستسلام إلى الله متجردًا من كل ما أنتجه الفكر، وما أثمره النظر، وما ورثته النفس، وما صورته المخيلة. ودليلنا على هذا الفهم من الكتاب

حال إبراهيم في أول أمره، وقد نشأ في قوم يعبدون الكواكب، كما روى عنه الكتاب الكريم في قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(الأنعام/ ٧٦: ٧٩).

هذا دين إبراهيم الذي قال فيه الكتاب:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

(البقرة/ ١٣٠: ١٣٢)

والدليل، قوله (ﷺ): «كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[(١)]، أي أن كل مولود يولد مفطورًا على الدين الخالص الذي هو الدين الحق وحده، وإنما أبواه يلقنانه من التعاليم ما هم عليه منها، وهو ينافي الإسلام جملة وتفصيلًا؛ لأنه لا يعتد بدين غير تلك الفطرة نقية ساذجة حرة مستعدة لقبول كل حسن،

(١) سنن الترمذي/ ٢١٣٨.

ودفع كل قبيح، وللمتذهب بكل ما يقوم على صحته الدليل، والاستعاضة عنه بغيره متى لاح لها أنه أقوم منه سبيلًا.

فهذه الفطرة، فطرة المولود قبل أن يلقن دينًا من الأديان، وتعليمًا من التعاليم، هو الإسلام الذي جاء القرآن بالدعوة إليه، فهل صادفت فيما بين يديك من المذاهب الفلسفية مذهبًا في الدين أرقى من هذا المذهب، وأساسًا له أبعد غورًا من هذا الأساس؟.

فالإسلام لا يؤخذ بالتلقين، وإنما هو الطبيعة نفسها خالصة من جميع المذاهب البشرية، فكل مولود يولد مسلمًا بطبيعته، فيهتدي إلى خير المذاهب في مدى حياته بعلمه وعقله وتفكيره، ولا يحتاج لمن يرشده إليه. فهل بعد هذا مرمى لمن يريد أن يذهب في تحليل الدين إلى أبسط عناصره، وهل من فلسفة في الأرض تقوى على دحضه، وقد أخرجه القرآن من دائرة الأمور العقلية، وأودعه حظيرة الشئون الفطرية الطبيعية؟

فالعالم المنتهي يذهب وتأخذه الحيرة، متى رأى أنه أمام مذهب هو نفسه المذهب الذي حصله وقام عليه بعد أن احترق رأسه تفكيرًا فيه، وذابت نفسه تعطشًا إليه.

فإذا أراد هذا العالم المنتهي أن ينظر في أسلوب هذا الدين، وفي تطبيق هذا الأصل على ما فيه من العقائد والعبادات والمعاملات، رآه

قائمًا على أكمل الوجوه وأحكمها. وأول ما يود الوقوف عليه منه مسألة العقيدة بالخالق، وهي المسألة التي تلاعبت بها أهواء أهل الملل، فذهبوا فيها مذاهب شتى، وتحكموا بها إلى مدى بعيد، كأن الخالق مخلوق مثلهم تجري عليه الأحكام التي تجري عليهم، أو هو مما يمكن تناوله بهذا العقل الكليل.. فإذا وقف العالم المنتهي على ما هو بصدده رأى ما يكاد يذهب بلبه تعجبًا! رأى أن هذا الدين قد سد على ذويه جميع السبل التي تؤدي إلى ذلك الفضول المزري بكرامة العقول، فوجد القرآن يقول:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ (طه/ ١١٠).

ويقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى/ ١١).

ووجد رسول الإسلام يقول: «إن الله قد احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وأن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم»[1]، أي أن الملأ الأعلى وهم في عالم الروح ليطلبون العلم بالله كما نتطلبه نحن، ونحن في عالم الأجساد، فتساوينا جميعًا في الجهل به، وإن اختلفنا في وسائل التحصيل هذا الاختلاف الكبير.

هذا نص الكتاب والسنة، فلا عجب أن أصبح القول بالعجز عن معرفة الله عقيدة إسلامية، فقد روي عن أبي بكر أنه قال:

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٩/ ٥٩٧.

«العجز عن درك الإدراك إدراك» وهو أبلغ من الإشارة إلى مجرد العجز، فقد اعتبر الصديق هذا العجز نفسه علمًا.. وهو قول في منتهى الإصابة وبُعْد الغور.

ووضع الأصوليون الإسلاميون هذه القاعدة العملية التي تقطع السبيل على كل محاولة فقالوا: «كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك».

وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه- أنه قال: كما ورد في مجموعة كتبه وخطبه الموسومة «بنهج البلاغة»، وقد سأله بعضهم أن يصف الله حتى كأنه يراه عيانًا، فغضب الإمام وقال في كلام طويل بليغ:

«واعلم أن الراسخين في العلم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علمًا، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم عن كنهه رسوخًا، فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله- سبحانه- على قدر عقلك فتكون من الهالكين. هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسواس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، وتولهت القلوب إليه لتجري في كيفية صفاته، وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته،

ردعها وهي تجوب مهاوي سدف الغيوب، متخلصة إليه سبحانه فرجعت إذ جبهت معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته، ولا تخطر ببال أولي الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته».

«كذب العادلون بك إذ شبهوك بأصنامهم، ونحلوك حلية المخلوقين بأوهامهم، وجزءوك تجزئة المجسمات بخواطرهم، وقدروك على الخلقة المختلفة القوى بقرائح عقولهم.. وأشهد أن من ساواك بشيء من خلقك فقد عدل بك، والعادل بك كافر بما تنزلت به محكمات آياتك، ونطقت عنه شواهد حجج بيناتك، وإنك أنت الله الذي لم تتناه في العقول فتكون في مهب فكرها مكيفًا، ولا في رويات خواطرها فتكون محدودًا مصرفًا».

هذا كلام جليل، فإن لم تصح نسبته إلى أمير المؤمنين علي فهو على أية حال من مولدات المسلمين، وفيه دلالة على حقيقة مذهبهم في هذه المسألة الأولية.. فإذا وقف العالم المنتهي على هذا التفصيل، وسرح طرفه في غيره من المقررات الإسلامية، وأدرك أن هذا الدين قد بني كله على أصله الأصيل، وهو أنه هو الفطرة التي تولد عليها كل نفس إنسانية، وأن كل ما جاء فيه من التعاليم في الكتاب والسنة النبوية قائم على ما تتطلبه هذه الفطرة، وما يقتضيه تطورها في الكمال، وهذه الفطرة كما يشعر بها كل حي سلطانها العقل، وطريقها العلم، ودليلها

الواقع، وعدوها كل ما خالف هذه الشريعة.. فهل نص الإسلام على كل ذلك نصوصًا لا تقبل التأويل، وقام صرحه الشامخ عليها في كل أدواره في خلال العصور؟.

نعم.. وسنبين ذلك تفصيلًا في فصولنا المتتابعة التي نحدد فيها شأن الإسلام مع أهل الطبقة الثانية.

* * *

شأن الإسلام مع الأوساط

قلنا: إن طائفة الأوساط، ومن في مستواهم من المفكرين أول شيء يتطلبونه من الدين أن يكون واضح المحجة، ناهض الحجة، فما هي محجة هذا الدين وما هي حجته التي يعتمد عليها حيال الأمم والأجيال البشرية؟ وهل كان للناس به حاجة، وهل لا تزال هذه الحاجة داعية إليه؟

أم جاء ليزيد عدد الأديان واحدًا، ويوسع شقة الخلاف بين المتدينين وقد بلغوا منه الحد الذي ليس وراءه مذهب لمستزيد؟

لقد سبق أن أوضحنا أن الإسلام هو الفطرة التي فطر الله عليها الخلق، فلا نعود إلى ذلك الكلام ولكنا نحيل القارئ إليه، ونزيد عليه هنا قولنا:

يعلن الإسلام قبل كل شيء بأنه دين عام أنزل للبشر كافة، وأن الرسول الذي جاء به هو خاتم النبيين، تم به عهد الوحي الإلهي، وخلى بين الإنسان وعقله، بعد أن خلع الحد الذي يستطيع معه أن يستقل بهداية نفسه، فقال تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (سبأ/ ٢٨).

وقال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف/ ١٥٨)

وقال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾

(الأحزاب/ ٤٠)

فبأي شيء أرسل خاتم النبيين، وأي دين حمله إلى الناس كافة يصلح أن يقيمهم على اختلاف بيئاتهم، وتباين عقولهم، على الصراط الذي يؤدي بهم إلى الغايات البعيدة، من الترقيات الصورية والمعنوية؟

يصرح الإسلام بأنه لم يأت الناس بدين جديد، ولكن أتاهم بالدين الأول الذي أوحاه الله إلى المرسلين كافة من أول أبي البشر الثاني نوح، إلى عيسى ابن مريم - عليهما السلام - فقال في نص لا يحتمل التأويل، ولا يقبل التحريف:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

(الشورى/ ١٣: ١٥)

هذا كلام صريح في أن الإسلام هو الدين الذي أوحاه الله إلى أول المرسلين بعد آدم، وما زال يجدد الوحي به لكل رسول حتى خاتم المرسلين، وقد تولى القرآن نفسه شرح هذا الإجمال، فقال إن الدين الأول هو القيام على الفطرة، وعدم التفرق في مذاهب التدين. وهذا كلام صريح في الدعوة إلى توحيد الأديان، وحكم بات بأن التفرق فيها، على وحدة أصلها، خروج عليها جميعًا.. فإن الفطرة الإنسانية ما دامت واحدة في صميم كل نفس، فلا معنى للاختلاف في مقتضياتها، إلا أن يكون ذلك بغيًا من القائمين عليها، لتسخير الناس لإرادتهم، وذهاب كل طائفة منهم بفريق من البشر يستغلون جهالته لإشباع مطامعهم. فأمر الله رسوله أن يبرأ إلى الله من ذلك، ويصارح به الأمم في مشارق الأرض ومغاربها، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام/ ١٥٩)

وأن يعلن إيمانه بجميع الكتب إجمالًا، وأن لا يخاصمهم ولا ينابذهم، بل وأمر أن يعدل في الحكم فيهم، راجيًا أن الله يجمع بينه وبينهم.

وقد طبع الإسلام كله بهذا الطابع الإلهي، حتى إن صيغة الإيمان التي أمر المسلمون بأن يقولوها أصرح ما يمكن أن تكون إعلانًا له، وإليك نصها من سورة البقرة:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ (البقرة/ ١٣٦ : ١٣٨).

وقال في موطن آخر من تلك السورة:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (البقرة/ ٢٨٥).

وقال في سورة آل عمران:

﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٨٣ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ (آل عمران/ ٨٣: ٨٤).

وقال في هذه السورة نفسها:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾

(آل عمران/ ١٩: ٢٠)

وقد شدد الله في وجوب الإيمان بجميع الرسل ليقيم مبدأ توحيد الأديان على أقوى أساس، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾(النساء/ ١٥٠ : ١٥١).

كل هذه نصوص صريحة في أن الغاية التي قصد إليها الإسلام بإعلانه أنه ليس بدين جديد، ولكنه هو الدين الذي أنزل على جميع الأنبياء، هي أن ينشر هذا العلم الصحيح الذي يجهله جميع الآخذين بالأديان من البشر.. فالدين بمقتضى مذهبه هذا لا يجوز التخالف فيه، وكيف تتخالف وأساسها الفطرة، وهي واحدة لدى الناس على اختلاف بيئاتهم وأجيالهم، وإنما جاءهم الخلاف من الأوهام والأهواء التي تناول بها قادتهم العقائد بالشرح والتأويل والتحريف في خلال العصور، حتى تحقق مطامعهم في تسخير النفوس واستغلال جهالتها؟

هذا تجديد خطير الشأن في نظرية الدين، فطن إليه الأولون فتسارعوا إلى الدخول في الإسلام بغير دعوة، حتى قدر من دخل فيه في قرن واحد بمائة مليون نسمة، ومنهم كثيرون من قادة الأديان وأولي العلم. ولكن هذا التجديد العظيم جعله سواد المسلمين منذ أجيال كثيرة فأهملوا التنويه به، وتجاهله الأجانب، فوقف انتشار الإسلام عند حد، وفقد أهله الروح التي تحرك أهل التجديد إلى العمل المتواصل..

فجمدوا حيث هم، ولكن هذا الأمر الجلل سيتضح عندما ينضج أهله في العلم فيستولي على قلوبهم، ثم يتعداهم إلى غيرهم، حتى يعم نوره الأرض:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾(فصلت/ ٥٣)

وإذا كان الإسلام قد قرر بأنه هو الدين الفطري الذي أوحي إلى كل رسول، وأنه جاء لتوحيد الأديان كلها بردها إلى أصلها الأصيل، وأن ما فرق الناس سوى بغي قادتهم طمعًا في المال والسلطان، فقد حمل الأمة التي تأخذ به تبعة من أكبر التبعات؛ وهي أن تكون للناس علمًا يهتدون بهديها في كل طور من أطوارهم، ومنارًا يهتدون بنورها إذا ضلوا في متاهات مذاهبهم، فقال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(البقرة/ ١٤٣).

فكل مسلم، بحكم هذه التبعة، يجب أن يكون علمًا من أعلام الهدى، وسفيرًا إلى من حوله يلفتهم إلى هذه الحقيقة الثابتة، بهذه الحجة الناهضة. لهذا كله صار الإسلام دينًا عامًا، وسيتضح لك مما يلي من البحوث أن كل أوامره ونواهيه، ومناهجه ومراميه، بنيت على

هـذا الأسـاس بحيـث تصـلح لجميـع النـاس علـى السـواء، وتماشـي تطوراتهم المادية والأدبية في كل الأجيال.

فهل يطمع الإنسان أن يعتنق مذهبًا أوضح من هذا محجة، وأقوى حجة، وأبعد مرمى، وأصدق مغزى، وأولى بالإنسانية في تطوراتها المتعاقبة، وأجدى عليها في انقلاباتها المتوالية؟.

أي دين في الأرض يقوم على غريزة طبيعية في النفس، ثم يعتمد في بناء صرحه على سلطان العقل، فيجعل من هذا البناء السامق لا شكلًا غير قابل للتحول، ولكن عملًا هندسيًا دقيق الصنعة يقبل التحويل في كل جزء من أجزائه، ليطابق الواقع ويماشي الحاجات دون أن يصاب أساسه بوهن؟

ثم ماذا تنتظر من رسول يقول إنه خاتم المرسلين أكثر من أن يعقد لك الدين على أساس طبيعي لا يمكن هدمه، بل ولا وصول المعاول إليه، وأن يجعل العقل دليلك في كل ما يأتيك به من عقائد وعبادات ومعاملات، وأن يجيئك بنظرية في التدين تعتبر أقصى ما يهدف النظر العلمي إليه؟

أليس الذي يأتيك بكل هذه النهايات جديرًا بأن يكون خاتم النبيين، والكتاب الذي يقدمه لك أهلًا بأن يكون خاتمة للوحي الإلهي؟

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾(آل عمران/ ٨١: ٨٣).

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(يوسف/ ١٠٨).

الفصل الثاني

الإسلام وسلطان العقل والعلم

الإسلام يعلن سلطان العقل والعلم

قلنا إن الأوساط يتطلبون من الدين أن يكون واضح المحجة، ناهض الحجة، وبينا لهم محجة الإسلام وحجته، والآن نأتي على مطلب ثانٍ لهم وهو أن يكون الدين مماشيًا للعقل في غاياته ومراميه، ومسايرًا للطبيعة في أوامره ونواهيه. فنقول: إن الانقلاب الكبير الذي أحدثه الإسلام في أمر الدين أظهر ما تكون عوامله في هذا الموطن.. موطن المناداة بسلطان العقل، والمجاهرة بسيادة العلم، فسمع الناس لأول مرة في تاريخ الأديان كلمات: تفكير ونظر وبرهان وتبعة شخصية وبطلان للتقليد.

كان الناس قد استعدوا- بعد طول مقام على الاعتقاد بلا برهان، والتقليد لغير معصوم- للدخول في دور الرشد، والاستقلال الذاتي على الأوصياء والقامة، والمتحكمين في دور نفسياتهم وعقلياتهم، فأرسل الله محمدًا بالإسلام؛ لافتتاح هذا العهد الكريم، والنداء بالدين العام الخالد، الذي أريناك أي شيء هو، فكان أول شيء وجه إليه عنايته تحطيم القواعد التي يقوم عليها التدين في مرحلة الجهل، وهي التقليد الأعمى، وإهمال النظر الشخصي وإغفال التفكير الحر، ومنابذة العلم، إلا ما كان منه موافقًا للدين في نظرهم، ومؤيدًا لسلطان المتحكمين في إرادات الناس وعقولهم، فأهاب الإسلام بالناس إلى اعتبار العقل،

وسيادة العلم، ودعا إلى النظر والتفكير، وتطلب البرهان، واشتد في هذه الدعوة إلى حد أنه لو أحصى ما جاء في القرآن من قوله تعالى:

﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ إلخ إلخ لتعدت العشرات، ولو أضيفت إليها الآيات التي تطالب الناس بتنبيه قواهم العقلية، ورفض ما لا يعززه برهان، وترك كل ما لا يؤيده علم، ونبذ التقليد للآباء (إلخ) لبلغت المئات فإن القرآن كله قائم على هذه الأصول ويدعو لها، حتى ليتجلى لمن يتلوه أنه إزاء انقلاب فكري خطير الشأن، لا شبيه له في تاريخ القرون الماضية، بقصد إحداث ثورة على كل قديم، إلا ما وافق العقل والعلم منه.

وكيف كان يتأتى للإسلام أن يسلك غير هذه السبيل في حل الأديان المعقودة على أسس التقليد الأعمى، والقائمة على قواعد الاتباع المجرد من النظر، إلا بهدم هذه الأسس والقواعد البالية، ونسفها نسفًا، حتى يشكك هذه الأشباح الإنسانية فيما تدين به ولا تفكر فيه، وفيما تتعبد له ولا تستأنس له بحجة.

نعم لا سبيل للإسلام إلى النفوذ لقلوب الأمم غير محقق الحواجز الفولاذية التي وضعها حولها قادة الأديان؛ ليحجبوا عنها أنوار العقل، ولكي لا تنبض إلا بإرادتهم، ولا تتحرك إلا بإملائهم.

أمسك هؤلاء بمخنق الإنسانية فاستسلمت لهم طائعة أجيالًا؛ لأن العقل لم يكن قد نضج للاستقلال بنفسه.

فكان من مصلحة هذه الأكداس البشرية أن تقاد بمثل هذه الشكائم الحديدية، فلما بلغ الإنسان سن الرشد نسخت هذه السنة وتولد عهد جديد اقتضت الحكمة الإلهية أن تجعل على رأسه محمدًا (ﷺ)، فقام به خير قيام، وأرساه على أرسخ الوطائد، ثم تركه لرجال جروا على سنته، فانتشر الإسلام في نحو قرن من الزمان بلا دعوة ولا إكراه ما لم ينشره دين غيره إلا في قرون، وبالحديد والنار. فقد كان غزاة أوروبا يفتتحون البلاد ومعهم دعاة الدين ينشرون دعوتهم في تلك الظروف الرهيبة، ولهذه الدعوة تاريخ أي تاريخ، لا نذكر منه حرفًا إلا إذا هاجنا هائج إليه.

فاجأ الإسلام الناس بمبدأ لم يكونوا يحلمون به، ولا يتوقعون أن يسمعوه في عهد من عهودهم، وهو قوله (ﷺ): «الدين هو العقل، ولا دين لمن لا عقل له»[1]. وكانت سنة قادة الأديان قبل ذلك في مشارق الأرض ومغاربها كما قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر «أطفئ مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى».

(١) أخرجه النسائي في «الكني» وعنه الدولابي في «الكنى والأسماء» (٢/ ١٠٤) وقال النسائي هذا حديث باطل منكر.

ثم عزز الإسلام هذا المبدأ بمبدأ ثانٍ ليس بأقل من الأول دعوة إلى الثورة في الدين، وهو النعي على التقاليد والموروثات، وعلى المقلدين للآباء والأجداد، بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فقال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(البقرة/ ١٧٠).

وقال:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(المائدة/ ١٠٤).

وليس بخافٍ أن الجري على سنة السلف من أخص صفات المتدينين، وأكثر ما دب الفساد إلى الأديان كان من هذه الناحية، حيث تتقوى العقيدة الدينية بالعاطفة القومية، فترسخ في النفوس رسوخ غرائزها الطبيعية وهذه علة إبقاء الأمم، حتى الراقية منها، على عقائد لا تحتمل النظر المجرد فضلًا عن النقد، ولذلك تشدد الإسلام في هدمها إلى حد أن هذا التشدد اتخذه أعداؤه عونًا لهم في إبطال دعوته، وإثارة النفوس لكراهته ولكنه لم يبال بذلك؛ لأن نشر الدين العام الخالد، والناس في مفتتح عهد الأخوة العالمية، لا يتأتى إلا بالتعفية على هذه الآثار الموروثة، التي تصد الأمم عن الوحدة المرجوة.

وهذا الجهد لا يثمر ثمرته المنتظرة إلا بإيقاظ العقل، وتنبيه غريزة

التفكير والنظر الحر، والنعي على الآخذين بالظنون والأوهام، فأكثر الإسلام في هذه المواطن من الدعوة إلى كل ذلك في ألوان شتى لتبلغ مواطن الاقتناع من الصدور، وتدفع بالإنسان إلى تلمس المخرج، فقال تعالى:

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(يونس/ ١٠١).

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾(الحج/ ٤٦).

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.
(الزمر/ ٩)

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾(فاطر/ ١٩: ٢٠)

﴿ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(الأحقاف/ ٤)

﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾(الأنعام/ ١٤٨).

﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(البقرة/ ١١١).

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾
(النجم/ ٢٣)

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾(النجم/ ٢٨)

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾(محمد/ ١٤)

ثم شفع هذه الآيات الناعية على المعتقدين تقليدًا بالتنويه وبالتبعة الذاتية، وبأن أحدًا لا يغني عن أحدٍ شيئًا ولو كان نبيًا مرسلًا، أو ملكًا مقربًا، فقال:

﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾(الطور/ ٢١)

وقال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾(النجم/ ٣٩: ٤١).

وقال: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾
(الزلزلة/ ٧: ٨)

وقال: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾(النساء/ ١٢٣).

وقال: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾(المدثر/ ٤٨).

وقال:

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾(النجم/ ٢٦).

وقال: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾(البقرة/ ١٦٦: ١٦٧)

هذه الآيات، ومئات من أمثالها، تساور السامع من كل مظان

الإقناع فلا تزال به تكافح التحجر التقليدي فيه حتى تكشف عن الفطرة الإنسانية، فتهب تتطلب الفهم وتتحرى الدليل، ولا تسكن إلى الاتباع دون أن تعرف في أي طريق يجري بها، وإلى أية غاية يؤديها.

وقد رفع الله من شأن العلم حتى جعله النور الذي لا محيص لكل حي من طلبه، وأشاد بذكر العلماء إلى حد أن اعتد بشهاداتهم في حقه، فقال تعالى:

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾(المجادلة/ ١١).

قدرها ابن عباس بسبع مئة درجة. وقال:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ (آل عمران/ ١٨)

ومن أشد ما يدفع بالنفوس لطلب العلم، ومن أعجب ما أثر من الإشادة بفضله، قصر الصفات العليا التي يتهالك الناس على الحصول عليها، على أهل العلم دون سواهم؛ لأنه لا يبلغها غيرهم، فقال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾(فاطر/ ٢٨).

وقال:

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت/ ٤٣)

وقال:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾(الروم/ ٢٢).

بكسر اللام فيهما.

أما ما ورد عن النبي (ﷺ) في هذا الباب فلا يكاد يحصيه متتبع، منه قوله: «مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة»[١].

وقوله: «فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد»[٢].

والفقه معناه الفهم والعلم، وقوله: «اطلبوا العلم ولو بالصين»[٣].

والمراد بالعلم ما يرفع الجهل وينمي العقل وينبه ملكات النفس ويكشف الحقائق الوجودية، ودليلنا على ذلك لفت القرآن للناس إلى البحث عن أسرار الكون وهو مستقر كل علم ومستودع كل سر كقوله تعالى:

(١) رواه الدارقطني في الأفراد عن ابن عمر وهو ضعيف ـ انظر جامع الأحاديث للسيوطي ١٦/ ٣٨٧.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٢٦٨١ عن ابن عباس بلفظ «فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد» وقال هذا حديث غريب. سنن الترمذي ٥/ ٤٨.

(٣) أورده ابن الجوزي في الموضوعات (٣٤٧/ ١) وضعفه الذهبي في تلخيص الموضوعات ١١٠، والسخاوي في المقاصد الحسنة ١٢٥.

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾(يونس/ ١٠١).

وقوله:

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾
(يوسف/ ١٠٥)

وقوله:

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ﴾
(آل عمران/ ١٩١)

والتفكير في خلقهما يؤدي حتمًا إلى العلم بهما، وهو مراد القرآن، ودليلنا العملي على ذلك أن العرب بعد وفاة النبي بست سنين (كما يقول العلامة درابر)، شرعوا يطلبون العلم، فلم يدعوا فرعًا من فروعه إلا حذقوه، وصاروا أئمته.. فلو كان الإسلام يريد بالعلم العلوم الدينية لوقفوا عند حدودها كما فعل المسلمون في العصور المتأخرة.

ومن أغرب ما يرويه الراوون في تاريخ الإسلام، أنه لاعتماده على العقل والنظر والعلم والبرهان، قرر الأصوليون أن الإيمان التقليدي في عقائده غير مقبول، فلا بد لكل معتقد أن يكون لديه الدليل على كل ما يأخذ به بقدر درجته من العلم.

فهذا المبدأ في الإسلام يوجب الدهش والحيرة؛ إذ لا يوجد ما يشبهه في الأديان ولا ما يقرب منه. ولكن لو علم الباحث فيه أنه دين

عام خالد لزال دهشه، فإن الأمم وقد ضربت في العلوم بأوفر نصيب، وستنال منها ما لا يخطر ببال لا تقبل عقيدة إلا على هذا الأسلوب.

على هذا النحو فتح الإسلام الأعين للنظر، والعقول للفهم، والقلوب للشعور.. فنهض عدد من رجال أسعدهم الحظ بمعاصرة خاتم المرسلين بنشر هذه النفحة الإلهية في الأرض، فتألبت عليهم الأمة التي هم من صميمها، فارتدت جزيرة العرب كلها عن الإسلام بعد وفاة النبي (ﷺ)، وتصايحت إلى السلاح، فنصر الله هذه الفئة القليلة على هذه الجماعات الغفيرة، ثم اندفعت إلى خارج بلادها تنشر هذا النور في بقاع خيم عليها الظلام قرونًا، محاولة أن تخرجها إلى النور. قال العلامة «سديو» المؤرخ الكبير ومن وزراء فرنسا السابقين في كتابه تاريخ العرب: «لقد كان المسلمون متفردين بالعلم في تلك القرون المظلمة، فنشروه حيث وطئت أقدامهم، وكانوا هم السبب في خروج أوروبا من الظلمات إلى النور».

فما يطلبه الأوساط من الدين في هذا الموطن موجود في الإسلام على أوسع ما يرجون.. وقد بُني الصرح الإسلامي الباذخ على هذا المبدأ الكريم، كما سنبينه في مطالبهم الأخرى.

* * *

الإسلام لا يضع للرقي حداً

المطلب الثالث للأوساط من الدين أن لا يضع للرقي حدًا، وأن لا يوصد على العقول مجالًا..

أما الإسلام من هذه الناحية، فلا أقول إنه يفي بهذا المطلب فحسب.. بل أقول إنه يفرض الترقي على الآخذين به فرضًا، ويدفع بهم إلى كل باحات العقول دفعًا. وإلا فكيف نفسر انتقال العرب بعد إسلامهم من عداد الأمم الجاهلة المسودة، إلى مصاف الأمم العالمة السائدة.. أستغفر الله بل إلى صف فوق الصفوف صارت فيه وحدها حافلة حافظة للعلم والحضارة والفنون دون سائر الأمم. وقد اعترف الكافة لها بالزعامة في ذلك قرونًا طويلةً، كانوا فيها يؤمون عواصمها.. يأخذون عنها العلم والحكمة وأسرار الصنائع والفنون. ولا يزال المؤرخون من جميع الدول يرددون هذه الحقيقة.. أليس هذا لأن الإسلام يفرض الرقي فرضًا، ولا يكتفي بأن يسمح به سماحًا.

إن قول الله تعالى:

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(الإسراء/ ٨٥).

وقوله:

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾(طه/ ١١٤).

وقوله:

﴿ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ ﴾(الزمر/ ٩).

وقول النبي (ﷺ): «اطلبوا العلم ولو بالصين»[١] وقوله: «خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت»[٢] أي ولو خرجت من فم آثم أو كافر، فإن الحكمة تلتقط حيث كانت ولا يؤثر على قدسيتها شيء.. كل هذه الآيات والأحاديث فرضت على المسلمين العلم، ودفعت بهم إلى مباحثه دفعًا، والعلم يؤدي إلى الترقي لا محالة، بل هو طريقه الوحيد في كل أدوار البشر.

أي علم؟ العلم على إطلاقه بكل ما يحتمله لفظه ومعناه، وبكل ما يؤدي إليه في الحياة.. فإن الدين يفرض على ذويه النظر في السموات والأرض، والذي يقول إنه يضرب للناس الأمثال ﴿ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت/ ٤٣) «بكسر اللام»، والذي يرفع من شأن أهل العلم بحيث يستشهد بهم في حقه، والذي يقول رسوله: «فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد»[٣] ويقول: فكر ساعة خير من عبادة ستين

(١) أورده ابن الجوزي في الموضوعات (٣٤٧/ ١) وضعفه الذهبي في تلخيص الموضوعات ١١٠، والسخاوي في المقاصد الحسنة ١٢٥.
(٢) .
(٣) سبق تخريجه.

سنة»[(١)]. قلنا إن الدين الذي يفعل هذا يدفع بأهله قهرًا إلى طلب العلم، وطلبه يهجم بهم على أطوار من الترقي لا تطوف بخيالهم قبل الدخول فيها.. وإلا فمن ذا الذي كان يتوهم أن العربي الذي كان يتخيل أن القمر له غلاف اسمه الساجور يدخل فيه كل شهر مرة ثم يخرج منه يسيرًا يسيرًا، ليعلل بذلك أطواره المختلفة من هلال إلى بدر، يصبح بعد مائة وخمسين سنة يعرف من أحوال هذا الكوكب ما يعرفه أكبر الفلكيين إذ ذاك؟

ومن الذي كان يتخيل أن ذلك العربي الجاهل يصبح بعد تلك المدة القصيرة، وبيده قبس من العلم، يدعو إلى نوره العالم من جميع أرجاء الأرض، يأخذون عنه ما جعله الله أمينًا عليه دون خلقه.. فكان الحافظ لميراث الإنسانية العقلي من ناحية، والواسطة في إحيائه، وتسهيل سبيل الانتفاع به من ناحية أخرى.

من ذا الذي كان يستطيع أن يتخيل هذا لولا أن الإسلام قد أوجب متبعيه الانقياد لناموس الترقي وجوبًا، لا أنه قد أباحه لهم اختيارًا؟

هل وضع الإسلام لهذا الترقي حدًّا؟ وهل للترقي في نظر الإسلام حد يقف عنده؟..

(١) ذكره الفكهاني وقال: إنه من كلام سري السقطي، قال الذهبي فيه إسحاق بن نجيح وهو كذاب، انظر ترتيب الموضوعات لابن الجوزي ص٢٦٩.

إن الدين الذي يقول لمتبعيه:

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(النحل/ ٨).

يفتح أمامهم باحة اللانهاية، فلا يدع في أنفسهم حاجة إلى السؤال عن الحدود والغايات.. لذلك رأيت المسلمين الأولين بعد وفاة نبيهم بست سنين، اندفعوا وراء العلم اندفاعهم وراء الحياة. ولا عجب فإن الدين الذي يقصر الصفات العليا للنفس، والغرائز الكامنة فيها، على أهل العلم وحدهم فيقول:

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت/ ٤٣)

يرون في العلم الحياة كل الحياة.

هل وضع الإسلام لشهوات العقول حدًا؟ هل أوصد في وجهها مجالًا؟

اللهم لا، بل أباح لها أن تجول في كل مجال، وأن تجوس خلال كل مجهول تظن أن وراءه فائدة مادية أو معنوية، وقد دعا الإسلام المسلمين إلى تعلم اللغات الأجنبية، فنبغ رجاله في اليونانية والفارسية والسريانية والهندية، وحضهم على تعليم كل علم حتى العلوم المعروفة بأنها باطنية أو ظلمانية، إن لم يكن للانتفاع بها فلاتقاء الضرر

الذي يجيء من قبلها، كالعلوم الطِلَّسمية «بكسر الطاء» وتشديد اللام مفتوحة»، والسيمياء، وأسرار الحروف، والتنجيم إلخ إلخ.

ومَنْ مِن الناس يخطر بباله أن الإسلام يسمح بتعلم السحر، وهو من أخص العلوم الظلمانية، وقد أعدم مئات الألوف من المتهمين به في الأمم، وألقوا في النار أحياء.. ولا تزال بعض القوانين الأوروبية تعاقب من يشتغل به ولو من ناحية التجارب العلمية، وإدراك العوامل النفسانية الخفية.

لم يحرم الإسلام من هذا كله إلا العمل به، حتى قال المسلمون في أمثالهم «تعلم السحر ولا تعمل به».

هذا تسامح عظيم، بل مراعاة حقة للطبيعة البشرية، فإن الإنسان مدفوع بطبعه لأن يرود كل مجهول، ويتحسس كل محجوب، ويرمي بنفسه إلى كل مرمى ولو كان وراءه حتفه، فالدين الفطري المساير لطبائع النفوس لا يسمح أن توصد على العقول باحة، ولا أن يحد لرمايتها حدًا. ولو فعل ذلك لكسر الناس كل قفل وضعه، وتعدوا كل حدٍ رسمه، وأصبح دينًا خياليًا يعرف ولا يعمل به، والإسلام لا يريد إلا أن يكون دين العالمين من ناحية عملية لا خيالية.

مما هو جدير بالذكر أن المسلمين لم يكتفوا بالاشتغال بجميع هذه العلوم الباطنية والظلمانية، ولكنهم ألفوا فيها كُتُبًا لا تزال موجودة إلى

الآن، منها المطبوع ومنها المخطوط.. وكثير منها محفوظ بدار الكتب، وفي مكتبات الأفراد في كل البلاد الإسلامية.

ومن أغرب ما نرويه أن العرب اشتغلوا كثيرًا بكيمياء الذهب، ووصلوا معها إلى نتائج عملية؛ إذ ذكر بعضهم أنه قد نجح فيما تصدى له، وليس لنا أن نكذبهم كما كنا نفعل قبل سنين معدودة؛ إذ أعلن في أوروبا وأمريكا بأن الكيمياء قد توصلت إلى تركيب الذهب. ومن الغريب أن العرب جعلوا الزئبق أساسًا لمحاولاتهم من هذه الناحية، وقد ثبت أخيرًا أن الزئبق هو الذهب مخلوطًا بأوكسيد الكبريت، وأنه متى استبعد هذا الأوكسيد منه بقي الذهب خالصًا من كل شائبة.

وثبت أيضًا- كما يقول الأستاذ درابر الأمريكي وغيره- أن العرب بحثوا في مذهب التطور، ودرسوه في بعض جامعاتهم بأوسع مما يفعل الأوروبيون اليوم؛ إذ طبقوا عوامل التطور نفسها على المعدنيات.

ولا يبعد أن يثبت أيضًا أنهم قد اكتشفوا أمريكا قبل «كريستوف كولومب» بقرون كثيرة وجمهرة من رجال العلم في أوروبا يرون أن أسرارًا علمية مما كان يعرفه المسلمون لا تزال محجوبة عنهم، فلذلك نجدهم يدأبون على استخراجها للانتفاع بها إن أمكن.

* * *

الإسلام لا يحرم ما تشعر به النفس من المباحات

المطلب الرابع من مطالب الأوساط من الدين أن لا يحرم شيئًا مما تشعر النفس بضروراته من المباحات، وأن لا يضيق ما اتسع من المحاولات، والواقع أن الإسلام بموجب أصوله، وتركيب بنائه، دين علم وحضارة وما يؤديان إليه من فتح واستعمار وتنافس وتنازع وغلبة، بفتحتين. فمثل هذا الدين ينافي بطبيعته الاستكانة والتماوت اللذين يريان على جماعات المتدينين في الأرض.. فلقد كان الرجل في فجر الإسلام يأتي فيبايع النبي (ﷺ) على الدين، ثم يبادر فيأخذ مكانه من الصفوف، إما مجاهدًا لنشر الدعوة، أو مدافعًا يذود الأعداء عن حرم الإسلام. ولهذا رأينا عمر بن الخطاب، ومن هو عمر؟ يضرب بدرته شابًا رآه بحضرته متخاشعًا منكسًا رأسه، قائلًا له: «ارفع رأسك فإن التقوى في الصدر».

وكان النبي (ﷺ) على جلالة قدره، وسمو منصبه يسرع في مشيته كأنه ينحدر من صبب. قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله كأن الشمس تجري في وجهه، ولا رأيت أحدًا أسرع في مشيته منه، كأنما الأرض تطوى له، وإنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث».

وقد نهى النبي (ﷺ) في نص صريح عن الغلو في الدين فقال: «لا تغلو في دينكم فإنما هلك من كان قبلكم بغلوهم في دينهم»[١] وقال: «الإسلام متين فأوغل فيه برفق، ولن يشاد الدين أحدًا إلا غلبه»[٢].

لا عجب في هذا كله، فمحمد كان مؤسس دولة عهد إليها الحق أن تحدث حدثًا لا مثيل له في تاريخ البشر، تسقط به دولًا وتقيم أخرى، وتنشر في الأرض أصول الثورة على التقاليد والموروثات، وتبني سلطان العقل على أرسخ القواعد، وتبرز الانقلابات الاجتماعية فتجعلها سببًا من أسباب الارتقاء..

لذلك كان النبي (ﷺ) يكره أن يرى أصحابه منهمكين على العبادة، غير مراعين حقوق أجسادهم، لأن الحدث الجلل الذي أرسل لتحقيقه في العالم يتطلب أجسادًا قوية، وإرادات حديدية، وكان يحثهم على المحاولات الرياضية كركوب الخيل والسباحة والرماية والمبارزة بالسيوف.

وقد جاء في الحديث أنه لحق به في تهجده رجال كانوا يصلون خلفه، ثم رآهم يكثرون ليلة بعد أخرى، فمنعهم خشية أن يفرض التهجد عليهم فيضعفهم.

(١) مسند الإمام أحمد ١/ ٢١٥، ٣٤٧.
(٢) البخاري ١/ ١٦.

وفيه أنه قال لعبد الله بن عمرو بن العاص: «ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ قال: نعم يا رسول الله، وإني على ذلك لقادر، فقال له النبي (ﷺ): لا، بل قم ونم وصم وأفطر فإن لبدنك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لـزَوْرِكَ «أي لزائريك» عليك حقًا، إلخ»[1] وقال: «من صام الدهر فلا صام ولا أفطر»[2] دعاء عليه.

وفي سيرة النبي والسلف الصالح من هذا الضرب كثير. ولا أظن مؤسس دين أو قائمًا عليه، في الأرض ينهى أحدًا عن الغلو في هذه المواطن، بل كثيرًا ما شجعوا عليه ومن أغرب ما في هذا الباب أن في الدين عزائم، أي أمورًا لا تقبل الهوادة في الأحوال العادية، ولكنها تقبلها في السفر، والمرض، والأعذار المشروعة، وتسمى رخصًا، ولكن بعض الناس كانوا يتجاوزون عن هذه الرخص غلوًا في محافظتهم على أوامر الدين، واعتمادًا على قوة بناهم «جمع بنية»، فنهاهم النبي (ﷺ) عن ذلك بقوله: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»[3] وقال: «من لم يأخذ برخصنا فليس منا» فهذا غريب من مؤسس دين، ولكن لو تذكرت أنه مؤسس الدين العام الخالد، الذي سيكون دين البشرية كلها إلى قيام الساعة، وأن هذا الدين يجب أن يكون عمليًا لا خياليًا أدركت سر هذا الأمر.

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ١٦، ٤/ ٢٩٩.
(٢) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٦.
(٣) صحيح ابن حبان ٥٤٥، ٩١٣، ٩١٤.

إن أكثر الناس وبخاصة في هذا العصر المادي، يشعرون بانقباض في الصدر إذا ذكر الدين أو ذكر أهله؛ لأنهم اعتادوا أن يسمعوا عنه زهدًا في الحياة، ونبوًا عن مباهجها وانصرافًا إلى ما بعد الموت لا يدع للنفس متسعًا لمتعة مادية، وأنهم اعتادوا أن يسمعوا عن رجاله الانقطاع عن الدنيا، والإقبال على العبادة وتحريم كل ما يلهي النفس، أو يروح عن القلب، والواقع أن ما بلغهم، أو رأوه ليس بصورة صحيحة للإسلام ولا لأهله الذين عرفوه حق معرفة واتبعوا أسلوبه في الحياة.

فمن شاء أن يعرف المثل الأعلى للإنسان المسلم، فعليه أن يدرس ما كان عليه رسول الإسلام من أمور الحياة تاركًا كل من عداه، فليس أحد بأجدر منه بمعرفة مراد الله من الدين، وما يجب أن يكون عليه الإنسان بين أهله ومواطنيه، فقد روى الإمام الترمذي في كتاب الشمائل في إسناد عن الحسن بن علي، قال: قال الحسين: «سألت أبي عن سيرة النبي (ﷺ) في جلسائه» فقال: «كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب، ولا فَحَّاشٍ، ولا عيَّاب، ولا مشاح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يؤيس منه راجيه، ولا يخيب رجاءه فيه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء والإكثار وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحدًا، ولا يعيبه، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه، وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رءوسهم

الطير. فإذا سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم، ويضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته حتى إنه كان أصحابه ليستجلبونه «وقصدهم من استجلابهم أن يكثروا سؤاله فيستفيدون هم من أجوبته»، ويقول: «إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فارفدوه، ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام»[(١)].

هذا وقد كان رسول الله (ﷺ) يأتي المباحات كلها ولا يتحرج إلا من المحرمات، والمحرمات في الإسلام محرمات في العقل والطبع والوضع، فكان يلبس ما يلبسه الناس مسلمهم وكافرهم حتى إنه لبس الجبة الرومية ذات الأكمام الضيقة، والقلنسوة الفارسية والمجوسية. وكان يرجل شعره بالمشط، ويدهن بالطيب، وكان يتكلم في كل موضوع مع أصحابه، قال زيد بن ثابت من حديث: «فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا».

وعن جابر بن سمرة قال: «جالست النبي (ﷺ) أكثر من مائة مرة، وكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت وربما تبسم معهم».

---

(١) الشمائل للترمذي ١٧٨.

وكان هو نفسه ينشد الشعر ويصغي إلى من ينشده، ويستحسن الحسن منه، ويجيز من يمدحه به، وقد أشاد بذكره فقال: «إن من الشعر لحكمة»(١).

وكان يمزح ويداعب أصحابه، فقد روى أنس بن مالك أن رجلًا طلب إلى رسول الله (ﷺ) ما يحمله. فقال له: «إني حاملك على ولد ناقة، فقال: يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة؟ ظنًا منه أنه سيعطيه فصيلًا. فقال له: وهل تلد الإبل إلا النوق»(٢).

وروى أنس أن النبي (ﷺ) صادف رجلًا اسمه زاهر وهو يبيع متاعًا له، فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره. فقال زاهر: من هذا؟ أرسلني. ثم التفت فعرف النبي (ﷺ) فجعل النبي يقول: من يشتر هذا العبد»(٣) مداعبة له..

وحَدَّثَ المبارك بن فضالة عن الحسن قال: «أتت عجوز للنبي (ﷺ) فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة. فقال النبي يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز. فولت المرأة تبكي. فقال النبي: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز(٤)، إن الله يقول:

(١) سنن ابن ماجة ٣٧٥٥ بسند صحيح عن أبي بن كعب رضي الله عنه.
(٢) شرح السنة للبغوي ١٣/ ١٨٢.
(٣) الشمائل للترمذي ١٢١.
(٤) شرح السنة للبغوي ٧/ ١٩.

﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۝ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ (الواقعة/ ٣٥: ٣٧)

ودخلت عليه امرأة في شأن لزوجها، فقال لها النبي: «أزوجك الذي في عينيه بياض» فظنت المرأة أنه يريد بالبياض ما يصيب سواد العين. فقالت: لا يا رسول الله، فتبسم وقال لها: أتخلو عين إنسان من بياض»[١].

حَدَّثَ سعيد المقبري عن أبي هريرة أن بعض أصحاب النبي قالوا له يومًا: يا رسول الله إنك تداعبنا.. فقال: «نعم غير أني لا أقول إلا حقًا»[٢].

فإذا كان رسول الله وهو الذي كان يجوع حتى يشد على بطنه حجرًا وحجرين زهدًا في متاع الدنيا، ويقوم الليل متهجدًا حتى ذكر الله ذلك في الكتاب، وله من مشاغل منصبه ما تنوء به العصبة أولو الحول والقوة، يصيب من هذه المباحات ما يروح به نفوس أصحابه، ويستجمع به من نشاطهم. وقواهم المعنوية، فهل يسوغ لأحد أن يمثل الدين عابس الوجه قطوبًا، إذا سلك طريقًا سلك الناس غيره مجافاة له وهربًا من تكاليفه؟

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء: رواه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة وابن أبي الدنيا من حديث عبد الله بن سهل الفهري على اختلاف.
(٢) الشمائل للترمذي ١٢٠.

على أن في الكتاب آيات لم يجيء لها ضريب في أديان البشر، وهي قوله تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾(الأعراف/ ٣٢)

وقال: ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾(الأعراف/ ٣١)

وقال: ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾(النساء/ ٤).

فالدين الذي يصرح بأنَّه لم يحرم التزين، ولا المتاع، ولا الأكل الطيب، ويتخذ رسوله خاتمًا من فضة، وغاشية لسيفه فيها ذهب، كما رواه الإمام الترمذي في شمائله، ويدعو إلى الرياضة البدنية حتى المصارعة، وقد صارع هو نفسه ركانة أقوى الناس عليها قبل الإسلام فصرعه.. ولا يخفى ما للرياضة البدنية اليوم من المنزلة عند أرقى الأمم- قلنا الدين الذي يصرح هذا التصريح، ويبيح هذه المباحات، ويكون رسوله من حسن الطريقة في الحياة على ما علمت، لا يصح أن يمثل للناس على غير صورته الصحيحة، فيهرب الناس من وجهه، ويفرون من أهله، ولا يذكرونه إلا في معرض التكاليف الشاقة، أو أحوال الموت وما بعده..

هذا هو الإسلام من ناحية المباحات، أما من ناحية الشق الثاني وهو أنه لا يضيق ما اتسع من المحاولات، فكيف يعقل أنه يعمد إلى تضييقها وهو الذي أعطى العقل سلطانه المطلق يجول في كل مجال،

ودفع بالناس في الحياة غير مقيدين إلا بما تشعر الفطرة السليمة بوجوب التقيد به؟

إن الدين الذي يقول لأهله: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء..»[1] والذي لا يقصر العبادة على الأعمال الشكلية التي عرفت عنها، فيعتبر كل ما يقصد به الخير عبادة، فطلب العلم عبادة، وطلب القوت عبادة، وتآلف الناس عبادة، وعيادة المريض عبادة الخ، حتى قال النبي (ﷺ): «إن المؤمن ليؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته»[2]. فالدين الذي يكون على هذه الشاكلة لا يعقل أن يضيق على أحد ما اتسع من المحاولات، وقد رأيت في تاريخ أهله أنهم بنوا لدينهم وأمتهم مجدًا من هذه الناحية لا تطمس آثاره، ولا تعفو معالمه، ولكنها ستزداد وضوحًا وجلاءً كلما ازداد الناس علمًا وارتقوا في معرفة الحق.

---

(١) مسلم رقم ١٠١٧ عن المنذر بن جرير عن أبيه.
(٢) البخاري ٧/ ١٥٧.

الإسلام مرن يتسع لكل ما يجد من الآراء العلمية

من مطالب الأوساط من الدين أن يكون مرنًا يتسع لما يجد من الآراء العلمية، ولا يستعصي على ما يثبت أو يرجح من المذاهب الفلسفية، ولا ما يقوم الدليل عليه من الشئون الكونية، والواقع أنه قليل على الإسلام أن يوصف بالمرونة وسعة الصدر للآراء والمذاهب والكونيات؛ لأنه دين إطلاق وتعقل وتفكير ومطالبة بالفهم وبالدليل، وإشعار بالتبعية الشخصية، ونهي عن التقليد.. وقد كان الناس إلى عهده أسرى الأوهام والأضاليل، وصرعى الموروثات والتقاليد، ليس في الدين فحسب ولكن في العلم أيضًا..

نعم، في العلم الذي يفخر اليوم بأنه أطلق العقل من إساره، وخلصه من أغلاله، وأرسى المعلومات على أساس الواقع المحسوس. العلم صادق فيما يدعي، ولكن منذ القرن السابع عشر فقط على يد العلامة الإنجليزي «باكون».

أما الإسلام الذي سبق «باكون» بنحو ألف سنة فإنه بمثل هذه الآيات:

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾(يونس/ ١٠١)

﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ ﴾(الحج/ ٤٦)

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾(الإسراء/ ٨٥)

﴿ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ ﴾(الزمر/ ٩)

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾(طه/ ١١٤)

﴿ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾(النحل/ ٨)

﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ ﴾(لقمان/ ٢٧)

أي آياته وحكمه. وبمثل هذه الآيات في النعي على الخياليين والمقلدين:

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾(الأنعام/ ١١٦)

﴿ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ ﴾(يونس/ ٣٦)

﴿ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾(المائد/ ١٠٤)

﴿ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾(البقرة/ ١١١)

وبمثل هذه الآيات في وجوب التثبت والتدقيق:

﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾(الإسراء/ ٣٦)

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾.

(إبراهيم/ ٢٧)

بمثل هذه الآيات أقام الإسلام العلم على أساسه الطبيعي الثابت ودفع بأهله إلى غاياته البعيدة، فالدين الآتي بهذه التعاليم قليل عليه أن يوصف بالمرونة؛ لأنه جاء بما هو فوق المرونة وهو فرضه العلم فرضًا فقال: «طلب العلم فريضة»(١) والدعوة إلى تطلبه ولو من أقصى المعمورة فقال: «اطلبوا العلم ولو بالصين»(٢).

فهل ما نقوله هنا غلو قضى علينا به التحمس للدين، التذرع لمكافحة المشككين، أم هو الواقع المحسوس الذي لا شك فيه مهما حاول ذلك المحاولون؟

لقد جاء الإسلام إلى العرب في عهد كانت فيه حياتهم الاجتماعية قد استوت على قرار منذ قرون.. فأهل البداوة منهم كانوا هملًا، ومن الفوضى بحيث كانوا يتناحرون، وكان من جاور الفرس والروم منهم قد وقعوا تحت نير هاتين الدولتين منذ قرون، واستكانوا لهذه العبودية ،ألفوها ولم يحركوا ساكنًا لرفع نيرها عنهم.

زد على هذا أن الأمة العربية كانت تكاد تكون وحيدة في علمها من

(١) سنن ابن ماجه ٢٢٤.
(٢) سبق تخريجه.

الناحية الكتابية، فلم تترك لنا كتابًا واحدًا حتى ولا ما تحرص عليه كل أمة من مخطوطات دينية ونقوش طلسمية.

جاء الإسلام إلى هذه الأمة وهي في هذا الدور من الجاهلية الجهلاء، فصاح بها صيحات تحمل في تياراتها نفحات من روح الحق.. فهبت من سباتها العميق تتطلب الحياة، وسارت في طريق التطور الاجتماعي، فما مضت عليها مائتا سنة حتى أصبحت صاحبة القيادة العلمية والسياسية في الأرض، وكانت سببًا مباشرًا في حفظ تراث الإنسانية من ثمرات العقول ونتاج الفكر.

فهذه الحركة العلمية القوية فيها، ما نشأت إلا بباعث من الإسلام، وما اتجهت وجهتها إلا بإملائه.. وما توسعت وألمت بجميع فروع المعارف إلا بدافع منه، وقد شهد بذلك جميع مؤرخي العالم قديمًا وحديثًا..

وثمة شواهد تاريخية على أن المسلمين الأولين لم يحرموا على أنفسهم مذهبًا من المذاهب، ولم يهملوا رأيًا من الآراء، ولم يهجروا أسلوبًا من الأساليب بحجة دينية.. ولكنهم ألقوا بأنفسهم أحرارًا في عباب العلوم والفلسفات غير مقيدين ولا متأثمين، فبنوا لنا من ثمرات جهودهم صرحًا من المجد لا تعفي على آثاره الدهور.

قال العلامة «درابر» المدرس بجامعة نيويورك في كتابه «المنازعة بين العلم والدين»:

«ولقد كان تفوق العرب في العلوم ناشئًا من الأسلوب الذي توخوه في بحوثهم.. وهو أسلوب اقتبسوه من فلاسفة اليونان الأوروبيين، فإنهم تحققوا أن الأسلوب العقلي لا يؤدي إلى التقدم، وأن الأمل في الوقوف على الحقيقة يجب أن يكون معقودًا بمشاهدة الحوادث ذاتها.. ومن هنا كان شعارهم في بحوثهم الأسلوب التجريبي والدستور العلمي» إلى أن قال:

«وهذا الأسلوب هو الذي حقق لهم التقدم الباهر في الهندسة وحساب المثلثات. وهو أيضًا الذي مكنهم من وضع قواعد علم الجبر ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية الخ».

«ولقد دأبوا على جمع الكتب بصفة منظمة وتكوين المكتبات التي تكلمت عنها.. وقد قيل إن المأمون نقل إلى بغداد مائة حمل بعير من الكتب، وقد كان أحد شروط الصلح بينه وبين ميشيل الثالث أن يعطيه إحدى مكتبات القسطنطينية التي كان فيه من الذخائر الثمينة الأخرى كتاب بطليموس على الرياضيات السماوية، فأمر المأمون بترجمته إلى العربية وأسماه المجسطي».

ثم قال عن همة المسلمين الأولين في ترجمة الكتب العلمية: «لقد كان في كل مكتبة كبيرة مكان خاص للنسخ والترجمة، وقد كان لبعض الخاصة مثل ذلك.. فإن هونيان الطبيب النسطوري كان له مكان من

هذا القبيل ببغداد سنة «٨٠٥م». ترجم فيه كتبًا لأرسطو، وأفلاطون، وأبو قراط، وجالينوس الخ.

إلى أن قال:

«وكانت قيادة المدارس تسند لذوي المدارك الواسعة، فكانت إما بيد النسطوريين أو اليهود؛ لأن المسلمين لم يكونوا يتحرون عن جنس العالم وديانته، وما كانوا يزنون قدره إلا بأعماله».

إلى أن قال: «وإننا لندهش حينما نرى مؤلفاتهم من الآراء العلمية، ما كنا نظنه من ثمرات العلم في هذا العصر.. من ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذي يعتبر مذهبًا حديثًا كان يدرس في مدارسهم، وقد تعمقوا في دراسته إلى أبعد مما وصلنا إليه.. وذلك بتطبيقه على المواد المعدنية أيضًا».

إن من يتأمل فيما ذكرناه يرى أن المسلمين الأولين قد ألقوا بأنفسهم في باحات العلم مطلقين غير مقيدين، فلم تكن هنالك سلطة دينية تحاكم العلماء على الفتيل والقطمير، وتحاول أن تجعل العقل والعلم تحت وصايتها فتقف حجر عثرة في سبيله...

وأنت ترى أنهم أخذوا عن اليونان فيما أخذوه كل ما أثمرته قرائحهم غير متحرجين من شيء، وفيما أخذوه أشياء ورد في ظاهر ألفاظ الكتاب الكريم ما يخالفها كمسألة كروية الأرض، فإن فيه آيات

نصت على انبساطها. وجرهم العلم نفسه إلى القول بالنشوء والارتقاء، وفي الكتاب نصوص صريحة تقول بالخلق المستقل، فهل كانوا في هذا مستعينين بالدين، وفي مقدمتهم الخلفاء ومن دونهم من العلماء العاملين؟

لا.. لا... ولكنهم كانوا في ذلك مسايرين لمبادئ الدين نفسه.. فإن الإسلام، وقد أطلق العقل من عقاله وأعطاه كامل سلطانه، كان يعلم أن المسلمين سيواجهون مذاهب وآراء تخالف ظاهر ألفاظ الكتاب، فاحتاط العارفون بأسرار هذا الدين لهذا الأمر، فوضعوا له قاعدة كلية في كتبهم الأصولية وهي: أنه إذا خالف حكم العقل نص الكتاب أو السنة، وجب التعويل على حكم العقل، وتأويل ظاهر النص؛ لذلك لم يصطدم الدين بالعلم، ولا بالمذاهب الفلسفية في العهد الذهبي للمسلمين، فكان في هذه القاعدة مخرج للعلماء في الأخذ بالآراء أيًا كانت، وفي التقدم بالعلم والفلسفة إلى أقصى حدودهما غير متحرجين ولا متأثمين..

هذه القاعدة من أعظم ما أوجده الإسلام من القواعد المؤسسة لحرية العلم، والموطدة لدولة العقل.. وهي في الوقت نفسه أدعى القواعد للإعجاب بسمو هذا الدين، وللتعجب من سبقه العالم كله بنحو عشرة قرون لتقرير الدستور العلمي، ولإطلاق حرية النظر

والتفكير بغير اعتداد بشيء غير مصلحة العلم والفلسفة خالصين من كل وصاية ورقابة، ومن أعجب العجب أن المفسرين للكتاب جروا على سنة العلم نفسه، فقرروا كروية الأرض وسواها من المسائل التي تخالف ظاهر ألفاظ الكتاب، صائرين إلى تأويلها لتوافق مذهب العلم، مستفيدين من تلك القاعدة العظيمة.. فكانوا بذلك ممهدين لأقوم السبل لمن يأتي بعدهم عندما يتعمق في العلم ويكشف للناس ما لا يخطر ببال..

فهل من الأديان المعروفة شيء من هذا النوع، ولو شئنا لملأنا مجلدات من أخبار مكافحتها للعلم والعقل، وترتيبها العقوبات القاسية على كل صغيرة وكبيرة منهما أكثر من عشرة قرون متوالية؟

ولكنك لو علمت أن هذا الدين شرع ليكون دين البشرية العام الخالد، وأنه أنزل للناس في آخر الزمان حيث يبلغ العلم أبعد شأو، وتمتد الفلسفة إلى أبعد مما يتصوره الخيال البعيد المدى، وتكثر المسائل التي تخالف ظواهر الألفاظ الواردة في الكتاب، لبطل تعجبك وأدركت العاقبة له حتمًا وإن كره ذلك الكارهون.. مصداقًا لقوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت/ ٥٣)

أسلوب الإسلام في بناء الأخلاق

يطلب الأوساط من الدين فيما يطلبونه أن يرشدهم إلى طريق الآداب والأخلاق دون أن يحاول تحديدها، تاركًا للعقل حرية التطور في الشعور بها، وبلوغ الغاية التي تنتظر منها..

هذا نفسه هو أسلوب الإسلام ليس في الأخلاق فحسب، ولكن في كل ما له مساس بالإنسانية.. تفاديًا للتحجر الذي يصيب النظم، فيصبح شأنها شأن التماثيل تضاف إلى أمثالها مما صنع في أزمان مختلفة، وتمشي الحياة في واد وهي في وادٍ آخر.

لذلك حرص الإسلام على أن لا يعطي - على ما يجب أن يتطور بتطور الإنسان من أموره الحيوية - إلا أصولًا عامة لتبقى هذه الأصول حية خالدة كالنواميس الطبيعية، يحوم الإنسان حولها مستسلمًا لمستلزمات التطور.. وهذا أقصى ما يرجى من فرد أو جماعة حيال الأصول الخالدة. وهذا الموقف في الوقت نفسه يؤثر أعظم تأثير في أعمال الإنسان ومراميه، ويطبعها بطابع خلقي يزداد أثره ظهورًا على مر السنين.

كل كائن في العالم يحمل من الروح العام نفحة، يقوم بها مبناه ومعناه معًا.. والإنسان يحمل أكبر قسط مما تحمله الكائنات من هذا الروح، وهو الذي يرفعه من حضيض الحيوانية، ولا يني يدفعه إلى

التطور وإلى الاستقامة، وهذا القسط الروحاني الأكبر الدافع إلى التطور، والمؤدي بذويه إلى أرقى مكانة، هو الذي دعاه الكتاب الكريم بالأمانة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾(الأحزاب/ ٧٢)

إنه كان ظلومًا جهولًا، لا لقبوله حمل الأمانة، ولكن لحيده عن الصراط السوي وهو يحمل هذه الأمانة في سويداء قلبه.. فالكلام دعوة لمراعاة حقوق هذا السر الأقدس في صورة تبكيت. وهذا أبلغ ما قرأه الناس في الحث على مراعاة الكرامة الإنسانية، وعلى تجلية التبعة الأدبية التي تتحملها البشرية. والتعبير بالأمانة أجمل ما عرفوه من التنويه بالفضيلة التي لا يخلو قلب من قبسة إلهية منها.

بعد تقرير هذا المبدأ الأساسي الذي يجعل السعي للكمال في الأخلاق والصفات والميول أمانة في عنق الإنسان، وجه الإسلام عنايته لإيقاظ غريزة الرجولة في النفس إلى أبعد حد، ورفع رين الكثافات عن قبس الروح المودع في جبلته، وقد اختار الإسلام لتجلية هذا المبدأ الأساسي فيه موطنًا من أدق مواطن النفس، حيث تتسلط العاطفة الدينية فتستولي على الشخصية وتسوقها وراء صغريات الأمور باسم الورع أو التنزه عن كل ما هو أرضي، مستوعبة جميع قواها في

سبيلها، فتجعل الأمة كلها كجماعة من المتنطعة انقطعوا للعبادة الجسدية، لا يغنون عن أنفسهم ولا وطنهم شيئًا، فقال تعالى:

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾(البقرة/ ١٧٧).

ومعناها أن العمل الصالح ليس أن تتلفتوا شرقًا وغربًا تتحرون مكان القبلة، ولكن العمل الصالح هو أن تؤمنوا بالله، وبالآخرة وبالملائكة، وبالكتب الإلهية، وبجميع النبيين، استكمالًا لحقوق أرواحكم، وأن تؤتوا المال- على شدة تعلقكم به- ذوي قرباكم واليتامى، والمساكين، والمسافرين، والسائلين، وأن تعملوا على فك رقاب الأسرى بأداء دياتهم قيامًا بحقوق المجتمع وتوفية لروح التكافل فيه، وأن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة تطهيرًا لأرواحكم وأموالكم، وأن توفوا بالعهود، وأن تصبروا على مواطن الشدة من فقر أو مرض أو حرب.. من يفعلون هذا كله فهم الذين صدقوا في إسلامهم وأولئك هم المتقون بحق لا الذين قصروا عملهم على تحري القبلة وبعض الصغريات التي لا تتصل بكبريات الأمور الاجتماعية، مستعيضين بها عن جميع صفات الروح التي تحفظ وجودكم، وتصون أوطانكم،

وتمكن لكم في الأرض.. فهذه الآية تكشف عن مذهب الإسلام في الأخلاق، وتجعل المتأمل فيه يلمس بيده العلل الأولية التي جعلت من المسلمين المتقدمين وحدة مندمجة لم تتجه إلى غاية إلا بلغتها، ولم ترم إلى غرض إلا أصابته..

ولك بعد هذا أن تتلو الكتاب لترى أن كل ما ورد فيه حثًا على محامد الخلال يقصد به إيقاظ غريزة الرجولة لا إماتتها كما فعل سواه.

ألا تعجب من دين يسوي في التبعية بين الظلم والاستكانة للظلم؟ فمن ترك نفسه يُظلم فهو كمن ظلم غيره على حد سواء، ويحض على عدم قبول بغي الغير، فقال في صفات المؤمنين:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾(الشورى/ ٣٩، ٤٠)

هنا نسرع فننبه أن الإسلام لا يعتبر التجاوز عن الحق ممدوحًا إن كان عن عجز وقصور، فإن تعبيره يقتضي القدرة على المجازة إذ لا يعفو إلا القادر، فلا يقال ضربت الجبان فعفا عني، ولكن يقال ضربت الجبان فعجز أو فاستخذى أو فنكص على عقبيه الخ.

ولم يكتف الإسلام بهذا، ولكن ذهب إلى عدم قبول الاعتذار بالضعف، فقال في قوم هالكين:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾.

(النساء/ ٩٧)

هذا أغرب ما يروى عن دين في العالم؛ لأن المعهود أن الأديان لا تعبأ بالقوة الاجتماعية، بل تؤدي إلى الضعف فيها وتعترف به، ولكن الإسلام لا يعتبر الضعف عذرًا، ويوجب على أهله أن يكونوا أقوياء في مجتمعهم، وكل هذا متنزل من أصله الأصيل في إيقاظ الرجولة في النفس البشرية.

ولكن بث هذه الروح في الأمم كثيرًا ما أصابها بروح التجبر، فجاء الإسلام بمعدلاتها عن التنويه بفضيلة العفو عند المقدرة، والصفح إذا كان أبلغ في المجازاة، فقال:

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

(فصلت/ ٣٤، ٣٥)

وقال:

﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

(الشورى/ ٤٠)

وقال:

﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾(الرعد/ ٢٢)

وقال:

﴿ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(التغابن/ ١٤)

وقد جعل الإسلام من معدلات روح الرجولة إقامة مبدئها نفسه، وتحمل عبء الخلق الممتاز، حتى في المواطن التي اعتادت الأمم أن تهدر فيها الدماء غريزة، وتعد ذلك قربات عند الله، وهي مواطن الانتصار للدين حيال من يريدون القضاء عليه وعلى أهله بحمية الجاهلية إعلاءً لشأن الوثنية.. فطالب الإسلام أهله بالعدل وعدم الاعتداء حتى في هذه المواطن، التي تغلي فيها الرؤوس وتطيش الأحلام، فقال تعالى:

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾.

(المائدة/ ٢)

وقال:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾(البقرة/ ١٩٠).

وقال:

﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾.

(النساء/ ٩٠)

وزاد الإسلام على هذه المعدلات معدل من روح البطولة والخلق العالي، فحرم على ذويه في هذه المواطن الخطيرة الأخذ بالظنون، وكلفهم بالتبين والتثبت في هدر الدماء البشرية، وهو ما لم يسمع بمثله في تاريخ أمة من الأمم، وبخاصة في الحروب الدينية التي يقتل فيها الرجل أباه وأخاه ولا يبالي، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾(النساء/ ٩٤).

هذا مع أنه ثبت لهم أن الكافرين كثيرًا ما كانوا يستفيدون من هذه السماحة فيظهرون الاستسلام والسيف يهوي إلى أعناقهم، ومتى زال عنهم الخطر عادوا إلى خصومتهم. وقد حدث أن أحد الصحابة لم يبال بخصم له نطق بالشهادتين والسيف يهوي إلى عنقه، فلما بلغ النبي ﷺ ذلك غضب منه غضبًا شديدًا، وتبرأ إلى الله من عمله فقال له الصحابي: يا رسول الله هذه خديعة منه.. فقال: ولو كان فإننا أمرنا أن نأخذ بالظاهر. فهذه الدرجة فوق الرجولة.. فهي بطولة صحيحة، وخلق سامٍ ليس وراءه مذهب. ولقد تنمو هذه الغريزة وتشتد حتى

تستحيل إلى وحشية، كما استحالت إليها لدى أمم كثيرة، فاحتاط الإسلام لذلك من كل ناحية. ونجح في ذلك فاشتهر أهله بحسن الجوار في كل تاريخهم الحافل بعظائم الأمور...

ومن معدلات هذا الخلق روح التضامن الذي بثه الإسلام في أهله بقوة لم تعهد في دين من الأديان فقرر أولًا أن الدين النصيحة، فقال عليه الصلاة والسلام: «الدين النصيحة»، فقالوا: «لمن يا رسول الله»؟ قال ﷺ: «لله ورسوله وعامة المسلمين وخاصتهم»(1). ثم جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حقًا من حقوق كل فرد في المجتمع، وواجبًا عليه يُسْأَل عنه، فقال تعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾(آل عمران/ ١١٠).

وقال في قوم من الهالكين:

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾.

(المائدة/ ٧٩)

وقال عليه الصلاة والسلام: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم فتنًا كقطع الليل المظلم تدع

(1) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، ب ٢٣، رقم ٩٥، بلفظ: (لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم).

الحليم حيران»[1].. فلكل مسلم بحكم هذه الآيات الحق في إبداء النصيحة للمجموع، وهو حق دستوري لم يتقرر إلا في آخر القرن الثامن عشر، فكان من ضمن حقوق الإنسان التي أعلنتها الثورة الفرنسية.

ولما تم للإسلام إحياء غريزة الرجولة في نفوس أهله ارتفع بهم إلى درجة البطولة، وطالب أهله بمقتضياتها وهي:

أولًا: قول الحق ولو على النفس والأقربين، فقال تعالى:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾(النساء/ ١٣٥)

ثانيًا: الترفع عن تطلب الثناء على الإحسان في كل عمل فقال تعالى:

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾(الإنسان/ ٨، ٩).

ثالثًا: إيثار المحتاج على النفس فقال تعالى:

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(الحشر/ ٩).

(١) مسند الإمام أحمد ٥/ ٣٩١.

والخصاصة: الفقر.

ثم ماذا أقول والقرآن بحر زاخر من الأخلاق النبيلة، والشمائل الجليلة.. وبحسبي أن أكون قد وفقت للإلمام بأصولها التي تقوم عليها.

الفصل الثالث

شريعـــة الإســـلام

شريعة الإسلام هي القرآن

يرجو الأوساط من الدين أن لا يكون إلا أصولًا أولية، أن تكون دستورًا للمشرعين، لا أن تكون شريعة تفصيلية إن انطبقت على الحوادث في عهد شذت عنها في عهد آخر ونحن نقول: إن الشريعة الإسلامية تفي بهذا المطلب على أكمل الوجوه، فهي محصورة في القرآن الكريم وهو مجمل في مواطن كثيرة منه؛ لذلك اضطر الخلفاء الأولون أن يستأنسوا بما قضى به النبي (ﷺ)، فكانوا إذا لم يجدوا ضالتهم من السنة، عملوا بآرائهم مستنيرين بالعُرف والحقوق الطبيعية والأصول التشريعية المقررة في القرآن..

فلما امتد الملك الإسلامي ونبغ العلماء الكبار في عواصم الإسلام، عالجوا الأمور التشريعية مقررين أن للشريعة الإسلامية أربعة أركان، الكتاب والسنة والقياس وإجماع المسلمين، وهو ما يعبر عنه اليوم بالاستفتاء العام.

ولا بد لنا قبل الكلام على الشريعة الإسلامية أن نلفت القارئ إلى أمور هامة وكلها من أكبر وأجل ما يؤثر في تاريخ شريعة، وقد أصبحت بما فتح على الناس من أسرار التشريع من المعجزات الخالدة لهذا الدين، والسيرة النبيلة لرجاله الأولين.

أولًا: إن التشريع في الإسلام لم يُسْنَد إلى طائفة خاصة، ولا حُصِرَ

في طبقة معينة، ولا جُعِلَ من حظ العرب وحدهم.. ولكنه جُعِل حقًا شائعًا للكافة، يتناوله من شاء من المسلمين، حتى المماليك الأجانب وأبناؤهم ممن كان يطلق عليهم العرب كلمة الموالي.. ثم ترك للرأي العام الحكم في الأخذ بما يقال أو إهماله؛ لذلك اتفق أن كان جمهرة أئمة الأقاليم وزعمائها في الدين من هؤلاء الذين كانوا أرقاء أجانب أو وُلِدوا من آباء كانوا أرقاء أجانب.

قال العلامة السخاوي في شرح ألفية الحديث للعراقي: إن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي قال للزهري إمام الحديث: «من يسود أهل مكة؟ قال الزهري: عطاء.. قال هشام: بما سادهم؟ قال الزهري: سادهم بالديانة والرواية. قال هشام: نعم، من كان ذا ديانة حقت الرياسة له.. ثم سأل الخليفة عن اليمن، فقال الزهري: إمامها طاووس وكذلك سأل عن مصر، والجزيرة، وخراسان، والبصرة، والكوفة «ولايات الدولة الإسلامية»، فأخذ الزهري يعد له سادات هذه البلاد، وكلما سمى له رجلًا كان هشام يسأله هل هو عربي أم مولى؟ فكان الزهري يقول: مولى، إلى أن أتى على ذكر النخعي فقال: إنه عربي. فقال هشام: الآن فرجت عني، والله ليسودن الموالي العرب، ويُخْطَب لهم على المنابر.

ثانيًا: إنه لم يوضع للتشريع أسلوب مقرر لا يجوز تعديه، فترك

لكل مشرع الخيار في انتخاب أسلوبه.. لذلك تخالفت أساليبهم إلى حد بعيد، وأشد ما تكون عليه اختلافًا بين أصحاب الرأي والقياس، وبين أصحاب الحديث. فالأولون وعلى رأسهم أبو حنيفة النعمان (توفي سنة ١٥٠هـ) كانوا يرون أن الرأي والقياس الصحيح أولى بالاتباع من الأحاديث التي رواتها آحاد.. ولم يصح عندهم من الأحاديث التي رواتها جماعة، أي المتواترة التي لا عذر لأحد في الشك فيها، إلا بضعة عشر حديثًا والآخرون أخذوا بأحاديث الآحاد إن قوي إسنادها، وثبتت بغلبة الظن صحتها.

ثالثًا: لم يخص التشريع بزمان دون زمان، فقد كان للقرن الأول أئمة وللثاني أئمة يقلدهم الناس يبلغ عددهم السبعين أو يزيدون، فإذا لم يبق لهم أتباع إلى اليوم فلأن المسلمين وجدوا في مذاهب أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وابن حنبل، غنى عن بقية المذاهب فاتبعوها وأهملوا ما عداها.

ولكن سلسلة الإمامة في الدين لم تنقطع، لنص العلماء على رجال من أهل القرن الرابع، والخامس وما بعده بأنهم وصلوا إلى درجة الاجتهاد، ولا يزال الباب مفتوحًا إلى يومنا هذا، ولسوف يبقى مفتوحًا على مصراعيه حتى تقوم الساعة.

رابعًا: إن أحدًا لم يحجر على أحد حريته في اتباع أي المذاهب

الفقهية شاء، بل ولم تحجر على أحد حريته في اتباع مذاهب المعتزلة والخوارج والفرق التي اعتبرت مبتدعة، فقد كان لهم ممثلون في جميع عواصم الإسلام.. وكان الكافة يجتمعون في المساجد فيتناظرون، ثم يرجع كل منهم إلى داره آمنًا لا يزعج طمأنينته أحد.

خامسًا: إجماع المسلمين على أن الاجتهاد في كشف أسرار الشريعة واجب على الحاصلين على مؤهلاتها، ولذلك لم يكرهوا قط أن تتعدد المذاهب، وهم في ذلك كانوا يصدرون عن طريقة النبي ﷺ نفسه فقد قال: «للمجتهد أجران إن أصاب وأجر إن أخطأ»[1].

سادسًا: كان المسلمون لا يروعهم الخلاف بين المجتهدين مهما كان بعيد المدى، بل كانوا يقابلون هذه الخلافات بارتياح عظيم.. وكانوا يكبرونها إلى حد أن جعلوها علمًا خاصًا سموه علم الخلاف، فكانوا يتدارسونه كما يتدارسون أصول الفقه لتحصيل ملكة السريان في سرائر المسائل المعقدة. وسرى الترحيب بهذا الخلاف إلى العامة فقالوا: اختلافهم رحمة.

هذه الأمور الستة التي ذكرناها هنا، ونحن بسبيل الكلام عن الشرع الإسلامي، لا يصح أن ندعها من غير تعليق عليها.. فإنها أعجب ما

(١) الحديث متفق عليه ولكن بلفظ «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر».

يروى عن شريعة دينية، وتبين عن أغراض سامية، ومرامٍ بعيدة، تضع هذا الدين في مستوى بعيد عن العوامل التي تلحق بالشرائع فتصيبها بالتجمد والتحجر، وتوجد له من المناعة وقوة الحياة ما يتقي بهما كل ما يخطر بالبال من دواعي الانحلال، فيضمن لنفسه الخلود والتفوق في وسط كل تطور من تطورات العقل والعلم معًا.

لقد قصد الإسلام بعدم حصره حق التشريع في طائفة خاصة أو جنس معين، وبفتحه بابه في وجوه الكافة حتى الأرقاء ومن في حكمهم، أن يجعله علمًا عامًا، لا طائفيًا خاصًا، ولا قوميًا محدودًا.. وغرضه من ذلك أن يتابع التشريع حياة الأمم ويكابد معها كل التطورات التي تدخل فيها، حماية له من الوقوف عند حد محدود، ومن القصور عن الإلمام بحاجات البشر كافة، باعتبار أنه دين عام خالد، وكل ما هو عالمي يعيش بحياة العالم، ويتبادل وإياه التعاون على قطع مفاوز الحياة ويدخل معه في جميع التطورات، ويخرج منها أقوى مما كان وجودًا، وأرسخ أصولًا، وأشمل لحاجات الآخذين به والمعولين عليه. ولكنه لو أسند إلى طائفة خاصة أو طبقة معينة، أو جنس دون جنس، لاصطبغ بصبغة قومية فينطبق على قوم دون آخرين، ويخرج مع الزمن عن أن يكون شرعًا عالميًا، فيقف عند حد.. ويزداد التباين بينه وبين الأمم، فلا تجد فيه حاجاتها ولا ثقافتها ولا روحها فتدعه وشأنه متلمسة من الشرائع ما يكون أولى بها منه.

وقد ترك الإسلام لشعوبه كل شيء من أول تعيين خليفة له، إلى تحديد شكل الحكومة، إلى ترتيب السلطات العامة إلخ، ليكون كل ذلك للشعوب الآخذة به.. وما كانت هذه صفته، عاش ما عاشت الشعوب، وتطور معها ما تطورت، وليس بعد هذا ضمان لحياة شريعة عالمية في الأرض.

وهدف الإسلام من عدم تحديد أسلوب مقرر للناظرين في شريعته، عدم حصر دائرة البحث في أمر كلما تعددت أمامه وجهات النظر، فيكون ذلك أدعى للإصابة، وأرجى لبلوغ الغاية.

وهذا في الوقت نفسه أجدر بدين يعترف بسلطان العقل، ويشيد بدولة العلم، ويحترم لكل مفكر وجهة نظره في الحدود التي قررها أولو البصر، ويقررونها على مر الأجيال والعصور.

والمتأمل في مدى الخلاف بين أهل الرأي والقياس، وبين أهل الحديث، يرى البون شاسعًا.. ومع هذا فقد رضي المسلمون هذا الخلاف الجوهري بين الفريقين وخصوا صاحب المذهب الأول وهو فارسي الجنس وقليل الحظ من العربية، بلقب الإمام الأعظم واتبعه أكثر المسلمين.

والمحير للعقل أن المسلمين أساغوا مذهب أبي حنيفة هذا في القرن الثاني للهجرة، ودُعي هذا الإمام لتولي رئاسة القضاء في الدولة

فـأبى.. فتولاهـا صـاحبه أبـو يوسـف، والمملكـة الإسـلامية في أوج عظمتهـا. فلمـا نبـغ أهـل الحـديث في القـرن الثالـث بظهـور مالـك، والشافعي وابن حنبل، احترموا رأي أبي حنيفة، ولم يرموه بما يرمي به المخالفون خصومهم.. بل كان بعضهم يصلي خلف بعض من غير اعتداد باختلافهم في وجهات النظر إلى هذا الحد البعيد.

وهـذا الأدب حصلوه من الإسلام نفسه، فإنه خول العقل كامل سلطانه، ولم يشترط للنظر وجهة معينة، ولم يضع له حدًا مقررًا.. بل ترك العقول حرة في توثباتها لبلوغ الحقيقة المجردة وهذا الأدب إن شوهد بين أهل الفلسفة والعلم- وكان من مقوماتهما وهو الذي ضمن لهما الاحترام العام والحظوة بالخلود ودوام الارتقاء- فإنه لم يشاهد قط بين أهل الأديان، فقد حصروا النظر في أمور الدين في طائفة خاصة ووضعوا له تقاليد لا يمكن تجاوزها بوجه من الوجوه.. لذلك انفصلوا عن جثمان الأمة، فخيل إليهم أن هذا الانفصال تميز، ففرحوا به وغفلوا عن أن هذا التميز يضيع الدين ويضيعهم معه.

وأراد الإسلام من عدم اختصاص التشريع بزمان دون زمان، أن يستفيد من الرقي الذي تحققه العقول فيكون حظه منه أوفر حظ، ويندمج في روح الأمم فتتوحد ميولها الدينية وميولها العلمية، فلا يكون بينهما تناقض من أي نوع كان، وتدوم الصلة بين الناس وشريعتهم

فتدخل معهم في جميع التطورات المقدرة لهم، وتتلاءم وأحوالهم الاجتماعية التي يدخلون فيها تحت ضغط الحوادث وآثار الانقلابات، وقد عاش المسلمون قرونًا على هذا النحو حتى إنهم اضطروا إلى تأويل كل نص خالف ظاهره حكم العقل والعلم، فقالوا بكروية الأرض وبكل ما وصل إليه علم الفلك وغيره، مع أن في الكتاب آيات يدل ظاهرها على نقيض ما قالوه، فأولوه جريًا على الأصل الإسلامي نفسه.

وألهم المسلمون عدم الحجر على حرية أحد في اتباع أي المذاهب شاء، لقيام دينهم على حرية البحث، وتحريم التقليد وإلقائه تبعة كل إنسان على عاتقه، وتقريره أن نفسًا لا تغني عن نفسٍ شيئًا. كما قال النبي عليه الصلاة والسلام لابنته: «اعملي يا فاطمة فإني لا أغني عنك من الله شيئًا»[1].. فكل مسلم مسئول عن عقائده ومعاملاته، ومطالب بالبرهان عليها باعتبار أنه كائن رشيد منح كل الصفات التي تجعله رشيدًا، وقد أوتي عقلًا يميز به بين الحق والباطل.

وقد رحب المسلمون بتعدد المذاهب وشجعوا عليه، لثقتهم بأن ما أبهم على واحد في أمر من الأمور قد ينكشف لآخر، وما استعصى على

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٦٥٤٩ ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٥٤ وقال فيه قطرى لم أعرفه.

مفكر من المفكرين قد ينقاد لغيره، فلا يحرمون من مزايا العقول في تصيد الحقائق، وهي من السعة بحيث لو تجرد الناس كلهم للبحث عنها لما كانوا مغالين في ذلك.. بل إن الإسلام في تقريره عدم قبول إيمان المقلد يشجع الكافة على الحصول على هذه الدرجة، ولا يسد على أحد مجال الاجتهاد في هذه الناحية.. ولهذا السبب عينه لم يخص الإسلام الاجتهاد بجنس واحد، ولكن فتح مجاله حتى أمام الأرقاء ومن في حكمهم، وهذا ما لم يسجله دين لأهله من سعة الصدر إلى اليوم.

ومما يجب أن يسجل لهذا الدين من المفاخر الخالدة في هذا الباب، تقريره أن المجتهد يؤجر وإن أخطأ.. فهذا الأصل الإسلامي يعتبر من أقوى الحوافز لإعمال العقول والأذهان. ويدل على أن مقصد هذا الدين الوصول إلى الحقائق السامية، لا الانحصار في دوائر ضيقة والجمود فيها، فيجيء ناموس الترقي فيدفعهم للخروج منها.. فيستقر في نفوسهم أنهم خرجوا على الدين، ويكون التنازع في صدورهم مثارًا لشبهات وشكوك لا تقف بهم عند حد، ثم يؤول أمرهم إلى نبذ الدين ظهريًا.

* * *

نظرة على أصول الشريعة الإسلامية

لم تظهر شريعة أرسخ قواعد في العدل، ولا أبعد مدى في المساواة واحترام الحقوق، ولا أجمع لأصول الحياة الاجتماعية، وأشمل لعناصر التطورات الإنسانية، من الشريعة الإسلامية.. ذلك لأنها قامت على مراعاة الحقوق الطبيعية، وراعت في وضعها لا مصلحة المجتمع الإسلامي وحده، ولكن مصلحة المجتمع البشري كله.. بل والمجموع العالمي عامة، ولاحظت في بناء جماعتها ألا يكون أمرهم قائمًا على التضخم بامتصاص دماء المقهورين، ولكن على بذل النفس والنفيس في سبيل إقامة المثل الأعلى.

لقد أدرك الإنسان في العصور الحديثة أن هناك عدلًا مطلقًا وحقوقًا طبيعية لكل فرد وكل جماعة.. فقصارى الشرائع التي تعتبر اليوم عادلة أن تقرب بالإنسان إلى هذا العدل وهذه الحقوق، لا أن تهيئها له كاملة. وفي اليوم الذي تستطيع أن تبلغ به إلى هذه الدرجة من الكمال تكون قد وصلت إلى المثل الأعلى الذي كانت تتطلبه ولا تبلغه.. ولكن الإسلام انفرد عن جميع الشرائع في تقرير العدل المطلق والحقوق الطبيعية للأفراد والجماعات معًا.

نعم، لقد أقر الإسلام الاسترقاق والحرب والفتوحات وفرض الجِزَى (جمع جزية) على المقهورين، وكل عالم بالاجتماع يرى له في

ذلك واسع العذر، فإن كل هذه الأمور كانت من عوامل الحياة الاجتماعية، ومن آثار التطورات الإنسانية.. فكيف كان يتسنى لدين يريد أن يكون عمليًا لا خياليًا أن يبطل الاسترقاق، ولم يحن وقت إبطاله إلا في القرن التاسع عشر، أو بمنع الحرب ولا تزال الحرب إلى اليوم الوسيلة الوحيدة لإثبات الحقوق؟ وكيف يحرم متبعيه من أقوى بواعث العمران، بل مما به وجودهم أحياء بين الجماعات؟ ألا يرون أن الأديان التي جاءت بالسلام والاستسلام قد اضطر أتباعها لمخالفتها، وأصبحوا أكثر الأمم اشتغالًا بالحرب والفتح والاستعمار؟

وعلى الرغم من ذلك، فإن الإسلام أحاط كل هذه الأمور بما يخفف من ويلاتها، ويؤدي إلى إبطالها متى اقتضت التطورات البشرية إبطالها، وللقارئ أن يراجع ما كتبناه في فصل الاسترقاق والحرب والاستعمار لدى المسلمين في قسم الرد على الشبهات.

ونكرر هنا قولنا إن الإسلام أمر في الحرب بعدم الإسراف في إراقة الدماء، وبعدم الإجهاز على جريح، وبعدم مطاردة المهزوم، وبقبول أوهى المحاولات وأكذبها للخلاص من القتل، كمن يلقي السلم والسيف يهوي إلى عنقه.

وراعى الإسلام في ضرب الجِزَى مصلحة المقهورين، حتى إن أممًا دخلت تحت حماية المسلمين طواعية هربًا من الضرائب الفادحة

التـي كانـت تفرضـها علـيهم حكومـاتهم، وللتمتـع بنعمـة العدالـة الإسلامية. وهذا أغرب ما سمع عن الفاتحين القدماء والمحدثين. أما فيما عدا هذه الأمور التي قضى بها الوجود الاجتماعي العام، فإن الإسلام قرر لشريعته العدل المطلق والمساواة التي ليس وراءها مذهب، بصرف النظر عن الألوان والأجناس والأديان والمراتب الاجتماعية، فإنه لم يعتد في سبيل ذلك لا بطبقات ولا بطوائف ولا بأي امتياز متنزل من أي اعتبار كان.

شريعة الإسلام في القرآن، وهي في الجملة أصول أولية من العدل والمساواة على إطلاقهما.. وقد تركت لأولي البصر تقدير الحقوق وتحديد التبعات، وتقرير العقوبات (إلا في مواطن معدودة سنأتي عليها). وقد قضى النبي (ﷺ) في حوادث، قضاء حفظته السنة الصحيحة، وجاء الأئمة بعده فقضوا بأمور أخرى لم تكن قد وقعت على عهده (ﷺ)، وقد راعى جميعهم فيما قضوا به العدل المطلق والمساواة الكاملة.. فجاءت مذاهبهم أعدل ما عرفه البشر إلى اليوم.

وقد أطلق الشارع حق النظر في الشريعة لكل إنسان حتى من لا يقبل منهم النظر في أمثال هذه الأمور لدى الأمم كافة، كالأرقاء ومن في حكمهم.. فيتكلم كل قادر على الفهم والاستنباط في هذه الشئون واعتبر كلامه إما اجتهادًا مطلقًا منه، أو اجتهادًا في مذهب من المذاهب

المقررة، حتى لا تستطيع أن تأتي بقول حديث من أقوال المشرعين المعاصرين لنا لا يكون قد سبقهم إليه إمام من الأئمة أو عالم من علماء المسلمين.. فإذا أريد أن نشرع من هذه الأقوال قانون عام أمكن تشريعه على حال أكمل من حال كل قانون في الأرض، ويكون قابلًا للتطور إلى ما لا حد له؛ لأن الإسلام لم يضع للاجتهاد حدًا، ولم يعين له أهلًا، ولم يحدد له زمنًا.. ولكنه ترك بابه مفتوحًا ليتسع لجميع التطورات العقلية التي تمر بها العقول في كل زمان ومكان. وحتى لا يكون للمسلمين عذر في تركه والتعويل على الشرائع الأخرى.

هذا من ناحية الأصول الأولية، التي أقيم عليها صرح الشريعة الإسلامية.. فهل راعى المشرعون الإسلاميون هذه الأصول، وهل أساغها الناس في تلك العصور ونفذوها على أكمل الوجوه؟ نحن مضطرون لتقديم هذه الأسئلة؛ لأن تنفيذ مقتضيات العدل المطلق والمساواة الكاملة، لم تُنْضِجْ إلى اليوم أرقى أمم الأرض من اللاتي نصبن أنفسهن أوصياء على العالمين، فهل تنفذه أمة في أول عهدها بالاجتماع، وتقوم بحقه في الحدود التي نعرفها نحن لها اليوم؟..

نعم نفذته الأمة الإسلامية، وقامت بحقه طوال عهد قوتها وإليك طرفًا من سيرتها في ذلك:

شكا يهودي عليًا بن أبي طالب إلى عمر في خلافته- وأنت تعرف

من هو علي- فلما مثلا بين يدي أمير المؤمنين، نظر إلى علي وقال له: «اجلس يا أبا الحسن» فظهرت آثار من الغضب على أسارير وجه عليّ. فقال له عمر: «أكرهت يا عليّ أن يكون خصمك يهوديًا وأن تمثل وإياه أمام القضاء؟» فقال عليّ: «لا ولكني غضبت لأنك لم تسو بيني وبينه بأن كنيتني فقلت: يا أبا الحسن والتكنية تعظيم!».

انظر إلى مبلغ فهم المسلمين الأولين لمعنى العدل حتى عد عليّ ابن أبي طالب تكنيته رفعًا له على خصمه، وهذا في نظره ضد المساواة التي أمر بها الإسلام، وانظر فوق هذا إلى أنه غضب لأن غيره عدا على العدل ولو في تمييزه هو نفسه عن غيره، وهذا غاية ما يعرف في تضامن أمة للوصول إلى المثل الأعلى في كل شأن.

وحدث أن ولدًا لعمرو بن العاص القائد المشهور فاتح مصر وواليها على عهد عمر بن الخطاب، ضرب رجلًا ظلمًا.. فأقسم المجني عليه ليشكونه لأمير المؤمنين، فبينما كان الخليفة مع خاصته وعمرو بن العاص وابنه معهم في المسجد في موسم الحج، إذا بهذا الرجل يقوم فيقول: «يا أمير المؤمنين إن هذا- وأشار إلى ابن عمرو- ضربني وقال اذهب فأنا ابن الأكرمين. فنظر عمر إلى عمرو وقال له: «متى امتلكتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟» ثم التفت إلى الشاكي وناوله دِرَّتَه وقال له: «اضرب بها ابن الأكرمين كما ضربك» ففعل.

تأمل في هذا العدل الذي يضمن حق رجل من السوقة ضد أمير من أمراء العرب، وابن فاتح أعظم بلاد العالم غنى، وأبعدها في الممالك شهرة.

وتطاول أبو ذر الغفاري على عبد زنجي في حضرة النبي ﷺ، فاحتد عليه وقال له: «يابن السوداء» فغضب رسول الله ﷺ وقال: «طف الصاع طف الصاع (مرتين تهويلًا للأمر)، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح»(١). فوضع عند ذاك أبو ذر خده على الأرض وقال للأسود: »قم فطأ على خدي» (تكفيرًا عن ذنبه) هذا في حين أن بعض الشعوب الراقية ما تزال تعتبر السود إلى اليوم في مستوى القردة، وأشد ما يكونون عليه هوانًا في بعض البلاد المتمدنة.

وعلى ذكر العبيد أقول: أتعلم أن في الأرض أمة تقتل الحر بالعبد؟

لا.. ولا في هذا القرن حيث بلغ الشعور بالمساواة حدًا بعيدًا. ولكن الإسلام قرر في شريعته أن يقتل الحر بالعبد إذا قتله عمدًا، فأنا إذا حشدت للقارئ كل آيات البيان لأستنزل إعجابه بهذا السمو فقد أراني مقصرًا حيال هذا الأمر الخطير.. ثم هل تعلم أن أهل دين يقتلون أخًا مؤمنًا منهم بكافر؟ لا والله إلا في شريعة الإسلام.

(١) إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٧٥.



إن أصدق ما يظهر به الإنسان من مبلغ احترامه للعدل والمساواة وقت احتدام غضبه، وتبيغ دمه، دفاعًا عن حياته وذودًا عن كرامته، وأصدق ما تظهر به الأمة من ذلك وقت الحرب والدفاع عن الحوذة، وبخاصة ضد خصوم من أهل الجاهلية الجهلاء لا يعرفون للرحمة معنى، ولا يقيمون للإنسانية وزنًا.. فَاتْلُ شريعة الإسلام، وتأمل إلى أي حد تأمر أهلها باتباع سنة العدل حتى في هذه المواطن التي تغلي فيها الدماء بالسخائم، وتطيش فيها الأحلام وسط صليل الصوارم فقال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ﴾

(المائدة/ ٢)

وقال:

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(المائدة/ ٨)

وقال:

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾(البقرة/ ١٩٠)

وفي الكتاب الكريم من أمثال هذه الآيات العدد الوفير وقد سبق أن ذكرنا أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ قتل رجلًا في الحرب ألقى إليه السلم، فلما بلغه ذلك غضب غضبًا شديدًا وقال: اللهم إني أبرأ إليك

مما فعل فلان، فقال له صاحبه إن هذه منه خدعة يا رسول الله. فقال: «ولو كانت كذلك فإنا أمرنا أن نأخذ بالظاهر»(١).

فالأخذ بالظاهر هذا مبدأ، أول ما جعله أصلًا من أصول الشريعة وأساسًا من أسس المعاملات، هو الإسلام. ولقد ساكن رسول الله ﷺ قوم من المنافقين التحفوا الإسلام واستبطنوا الكفر، فكانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر، وينقلون إلى الكافرين أخبارهم وحركات جنودهم، ويخرجون معهم للقتال فينهزمون يجروهم معهم فيتعقبهم العدو ويفتك بهم. فاحترم النبي ﷺ ظاهر إيمانهم، وصبر هو وأصحابه على أذاهم، وهم قادرون على إبادتهم، وهذا ما لم يظهر أثره في التشريع الدستوري إلا في القرن التاسع عشر حيث استقرت الدساتير واحترمت المذاهب السياسية المختلفة، وتركت الحرية لكل قبيل يعمل في دائرة القانون العام، ومنع التحري عن سرائر الناس للإيقاع بهم.

إننا نكتب هذا ونحن نتفزز طربًا من هذه الآيات الباهرة، ونتساءل هل يمكن أن يكون لهذه الشريعة التي تعتبر المثل الأعلى للعدل من طريق غير الوحي؟ وهل يستطيع رجل نشأ في جزيرة العرب، حيث بيئة الفخر بالآباء، واحتقار الضعفاء، والعدوان على الحقوق، وعبادة القوة والأقوياء، أن يأتي بمثل هذا العدل في ذلك العهد البعيد عنا؟

(١) البخاري ٤/ ١٢٢، ٥/ ٢٠٣، ويراجع نص الحديث عند البخاري رقم: ٦٨٧٢.

وإذا كان أفلاطون وأرسطو أميرا الفلسفة قررا، وقرر من جاء بعدهما، حرمان أهل الحرف والصنائع وأصحاب المهن والأرقاء من الحقوق المدنية كافة.. أفلا يعتبر الاعتداد بهم إلى هذا الحد سموًا ليس وراءه مذهب؟.

يقول قائل إنك تقول إن شريعة الإسلام أصول عامة تصلح لكل زمان ومكان، ولكننا نرى القرآن قد نص على عقوبات مختلفة على جرائم معينة كالزنا، والسرقة، وشرب الخمر، والقذف، والفساد في الأرض، فكيف توفقون بين قولكم وهذه النصوص؟

الحدود المقررة على بعض الجرائم في القرآن

قلنا إن في الكتاب الكريم جرائم معينة حددت لها عقوبات مقررة، كالزنا، والقذف، والسكر، والسرقة، والفساد في الأرض، فالكتاب والسنة الصحيحة يقرران على مرتكب الجريمة الأولى إن كان محصنًا عقوبة الرجم، وعلى مقترف الثانية مائة جلدة، وعلى مقترف الثالثة ثمانين جلدة، وعلى جاني الرابعة قطع اليد، وعلى فاعل الخامسة أن تقطع يده ورجله من خلاف أو ينفى من الأرض.. فهذه العقوبات تصادف اليوم اعتراضات من جانب المشرعين، وقد أباحوا هم الزنا والسكر وقرروا على القذف والسرقة والفساد في الأرض عقوبات تناسب خطرها.. ويفوت هؤلاء النقاد أمر خطير، وهو أن الإسلام دين إصلاح اجتماعي وله برنامج معين فيه.. وهو يرمي إلى تأليف مجتمع خال من الشرور ما أمكن، ويسود فيه التكافل في الحياة، والترافد حيال صعوباتها، إلى أقصى حد تطيقه الفطرة البشرية.

وفي الأرض مذاهب إصلاحية تكاد لا تحصى، فما الأديان الموجودة، وما جمهورية أفلاطون، ولا كتاب السياسة لأرسطو، وما وضعه أبيقور، وذينون، وغيرهم من الأقدمين، وما نشره كارل ماركس، ومن أتى بعده إلى لينين.. إلخ إلخ، إلا مذاهب اجتماعية قصد من ذويها إحداث إصلاح عمراني على موجبها.. فمنها ما طبقت على

بعض الشعوب وعاشت دهرًا ثم اضمحلت وزالت، ومنها ما حبطت تاركة وراءها دخانًا كثيفًا وحممًا.. وبعضها لم يطبق إلى اليوم على أمة من الأمم. فإذا كان الشيء تعرف قيمته من أثره، فانظر إلى المذاهب الاجتماعية المختلفة وتأمل هل من بينها ما يعادل مذهب الإسلام في الإصلاح الاجتماعي، أو يقرب منه في سمو أغراضه، وبُعْد غاياته، واستقامة مسالكه، وصحة أصوله، وفي تأديته للجماعات التي أخذت به إلى زعامة العالم في زمن لا يكاد يكفي لتطور فرد فما ظنك بأمة، وفي نقل ما حصله من النور العقلي والعلمي، والتقدم الصناعي والفني، إلى الأمم كافة.. حتى كان سببًا في حفظ التراث العقلي العالمي من التلاشي، بل كان داعيًا لإنعاش أوروبا بعد أن قضت في خدرها وجمودها ألف سنة، وأوجب لذويه سلطان الأرض، فقاموا به على سنن من العدل لا تزال تترطب بذكرها الألسنة، وتتعطر بأريجها الأندية، وتتخذ دليلًا محسوسًا على أن الإنسان يستطيع أن يوفق بين الدين الذي ليس وراء غاياته القصوى مذهب، وبين المدنية التي ليس عن مفاتنها مهرب، وأن يواخي بين السلطان الذي ليس فوقه مصعد، وبين العدل الذي ليس بعده مطمح؟..

فالإسلام كما ترى جاء بمذهب في الإصلاح الاجتماعي ونجح في تطبيقه، وكان من أثره ما رأيت مما لا تزال الأمم الآخذة به تعمل فيه، جهلًا منها به، معاول الهدم والتحطيم وتكاد لا تسقط منه ركنًا،

وستعود إليه بعد أن تصح من داء هذه الفتنة، أو تصحو من خدر الجهل الذي هي فيه معاصاة له، وخروجًا على أصوله. فهل تعدى هذا الدين فيما قرره من استفظاع الجرائم التي ذكرناها، وترتيبه عليها العقوبات الرادعة، الحق الطبيعي الذي للأفراد والجماعات؟ وهل قصر في اتخاذ الاحتياطات لها من جميع الأنواع؟

أي مشرع أو فيلسوف في الأرض لا يرى في الزنا جريمة من أبشع الجرائم، لعدوانها على الشرف والكرامة والأخلاق أكبر عدوان، فالإسلام قرر أن يضرب مرتكبه إن لم يكن محصنًا مائة جلدة، وأن يرجم إن كان من أهل الإحصان هذه عقوبة من الشدة بمكان بعيد، ولكن أرأيت كيف أحاطها الشرع الإسلامي بما يجعلها شكلية ردعية أكثر منها عقوبة حقيقية؟ فقد تطلب لإثبات الزنا أربعة شهود عدول يقررون أنهم رأوا الفعل رأي العين في تفصيل لا يستطيع الخوض فيه، مما يجعل إثباته قريبًا من المستحيل وزاد على هذا بأن أحدًا لو اتهم اثنين بوقوع هذه الجريمة منهما، طالبته الحكومة بإحضار أربعة شهور عدول، فإن عجز عن إحضارهم عُدَّ قاذفًا وضُرِب ثمانين جلدة.

وقد أوصى الشارع بقبول أوهى المعاذير في دفع هذه التهمة، فقد حدث أن رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني زنيت.. فوقع اعترافه وقعًا شديدًا من النبي، فأخذ يلقنه الشبهات التي تدفع عنه الحد، فيقول له لعلك قَبَّلت، لعلك عانقت، لعلك فاخذت، فلم يزدد

الرجل إلا إصرارًا، فلم يسع النبي ﷺ إلى أن يأمر بإقامة الحد عليه وهو كاره[1] وقد صح عنه ﷺ قوله: «ادرأوا الحدود بالشبهات»[2]، و«ادفعوا الحدود ما وجدتم لها مدفعًا»[3].

وقد سار أتباعه من بعده على سنته، فحدث يومًا أن رأى عمر بن الخطاب في أيام خلافته رجلًا وامرأة على فاحشة، فلم يستطع على شدته وحرصه على إقامة حدود الله- أن يبت في هذا الأمر بنفسه، فجمع الناس وقام فيهم خطيبًا وقال: ما قولكم أيها الناس لو رأى أمير المؤمنين رجلًا وامرأة على فاحشة؟ فقام علي بن أبي طالب وأجابه بقوله: يأتي أمير المؤمنين بأربعة شهود أو يجلد حد القاذف.. فسكت عمر ولم يعمل شيئًا.

إلى هذا الحد بلغ نظر المسلمين إلى هذه العقوبة، فهي شكلية ردعية كما قلنا أكثر مما هي حقيقية.

وأما قطع اليد على السرقة، فإن الإصلاح الاجتماعي الذي أوجده النبي ﷺ كان من أصوله أن يقوم المسلمون على مبدأ تعاوني محكم البناء، ليس في إحدى نواحيه ضعف. وقد سلك لذلك مسلكين،

(١) الطبراني ١١/ ٣٣٨.
(٢) كشف الخفا ١/ ٧٣.
(٣) سنن ابن ماجه ٢٥٤٥.

أحدهما أن يؤخذ من رءوس الأموال نحو اثنين ونصف في المائة للفقراء ومن في حكمهم، وللأعمال العامة التي تعود عليهم بالخير واليسر، فكان في بيت المال رصيد خاص بذوي الحاجة، ومن تدفع بهم الضرورة إلى الحدود القصوى، وكانت الحكومة مسئولة عن وصول الحاجة ببعض الناس إلى هذه الحدود. وثانيهما، كان على كل فرد من أفراد المسلمين واجب حتم، وهو العيش مع الجيران على حالة تكافل وتعاضد، بحيث يرفد غنيهم فقيرهم، وإلا كان عليه وزر القصر المستأثر.. فأكثر النبي ﷺ من التوصية بالجار حتى قال: «ليس منا من بات شبعان وجاره جائع»[1] وقد جرى المسلمون على هذا المبدأ حتى وصلوا إلى حدود يضرب بها الأمثال في التعاون بين الفقراء والأغنياء غصت بها تواريخهم.. فقد روى حجة الإسلام الغزالي أن رجلًا كان عند عبد الله بن عباس وغلام له يذبح شاة. فقال ابن عباس يا غلام لا تنس جارنا اليهودي، ثم عاد فكررها ثانية وثالثة فقال له الرجل: «كم تقول ذلك يا ابن عباس؟» فقال: «والله إن رسول الله ﷺ ما زال يوصينا بالجار حتى ظننا أنه سيورثه»!

انظر إلى هذا الأثر من ناحية أنه تشديد في مراعاة حقوق الجوار، ولا تنس أن تنظر إليه من ناحية دلالته على مبلغ تسامح المسلمين مع

(١) المستدرك على الصحيحين ٢/ ١٥.

الأجانب عن ملتهم، حتى إنهم لم يفرقوا بين الناس كافة في حقوق الجوار.

ففي نظام اجتماعي تعاوني من هذا الطراز، حيث يسود التكافل والترافد، ويمكن فيه استصراخ الحكومة المكلفة بدفع الحاجات عن المعوزين، كيف لا يعامل العابث بأموال الناس أقسى معاملة، بل وكيف لا تقطع يده حتى يكف سواه عن مثل عمله الذي لا يقصد به إلا محض الإيذاء وإزعاج الأمن؟ قال عليه الصلاة والسلام: «والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»[1].

وكيف لا يجلد رجل تسمح له نفسه الشريرة أن يشرب الخمر حتى يفقد الرشد، ثم يخرج إلى الشوارع والحارات يخيف الأطفال والنساء وربما ضربهم؟ وكيف لا يجلد كذلك رجل يتهم أهل الإحصان بالفسق، غير حاسب لما ينتج عن عمله هذا من حل روابط الأسر، وهدم أركان البيوت، ثم يعجز عن الإتيان بأربعة شهود عدول يعززون بشهادتهم ما يقول؟

والذين يفسدون في الأرض بإضرام نيران الفتن، وقلب النظم، وإزعاج الأمن، كيف لا تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو لا ينفون من الأرض؟

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ١٦٣، ٤٥٣.

هنا انظر لرحمة الشارع فقد قدم قطع اليد والرجل استفظاعًا لهذه الجرائم التي تضيع فيها أرواح بريئة، ثم فتح للحكومة باب الرحمة فخيرها بين هذه العقوبة والنفي.

نعود إلى الجلد فنقول: ليس في هذه العقوبة ما يؤاخذ عليه، فقد كان معمولًا بها في إنجلترا وغيرها، وفي السجون المصرية أيضًا. ولا بد لنا من التنويه هنا بحال الشهود، فإن القضاء الإسلامي لا يقبل، وبخاصة في الحدود، شهادة شهود يجمعهم المتقاضون من هنا وهناك، فيشترط فيهم أن يكونوا من أهل العدالة، وأن يشهد شهود آخرون بأنهم أهل للشهادة.

وفي الحادثة الآتية علم بما يجب أن يكون الشاهد عليه في الإسلام من الصفات، وبما كان عليه هذا الأمر عند أسلافنا الأولين من الخطورة. أدخل رجل على عمر بن الخطاب في عهد خلافته ليشهد في قضية، فطلب منه أن يحضر له من يشهد بأنه عدل، ففعل فلما مثل شاهده بين يديه قال له الخليفة: أتعرف فلانًا حق المعرفة؟ فقال الرجل: نعم يا أمير المؤمنين. فقال له: أأنت جاره صباح مساء لتعرف مدخله ومخرجه؟ فقال الشاهد: لا.. فسأله عمر: أعاملته بالدرهم والدينار الذي يستبين به ورع الرجل؟ فقال المزكي: لا.. فقال له الفاروق: أصاحبته في السفر الذي يتضح فيه ما هو عليه من مكارم



الأخلاق؟ فقال له الرجل: لا. فقال له عمر: لعلك رأيته قائمًا يصلي في المسجد يهمهم بالقرآن؟ فقال الشاهد: أي والله يا أمير المؤمنين. فقال له عمر: اذهب فلست تعرفه.

فالمسلمون الذين قاموا على هذه النظم المحكمة قد تمكنوا في عشرات من السنين من الظفر بزعامة العالم كافة في العلوم والفنون والسياسة، فاختر لنفسك الآن ما يحلو.. أتود أن يكون لأمتك ملك لم يتحقق لأمة قبلها، وزعامة العالم في العلم والسياسة وفيها هذه الحدود، أم تؤثر أن لا يكون لأمتك شأن يذكر بين الأمم، ولا تكون في قوانينها مثل هذه العقوبات؟

حكم الآيات المتشابهة

آخر مطلب للأوساط من مطالبهم التي جمعناها وتكلمنا فيها هو أن يكون الدين واضحًا سائغًا ليس فيه ما يحتاج لتأويل، ولا ما يستعصي على التعليل.

هذا مطلب لا ينال من دين يصل بين الناس وبين العالم الروحاني المشحون بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. عالم الحقائق الأولية، عالم الأصول الخالدة، عالم القوى العلوية، عالم الإطلاق المحض، فإذا قارنت بين مدركات عقلك وبين حقائق هذا العالم، تحققت أن تحصيل القليل من العلم عن شئونه يعوزه الشيء الكثير من التكلف والمحاولات.. ومن صرف الألفاظ عن ظواهر مدلولاتها، ومن تشبيه أمر بأمر لم يمت إليه بصلة، ولا هو من جنسه مادة ووجودًا.

أرأيت لو عهد إليك أن تعبر عن النور لمكفوف البصر فماذا كنت فاعلًا سوى أن تحوم حول الموضوع بما يدركه صاحبك بحواسه الأخرى، والنسبة بين مدركاتها والمدركات البصرية منقطعة.. فتضطر للتشبيه البعيد وللقياس مع الفارق، ولجميع العلل التي يأخذها رجال المنطق على أهل التعبير. فإذا نظرت إلى ما قلت وما قررت رأيت أنك قد أتيت بعبارات تحتمل الخوض فيها، وتصل بالخائض إلى كل غاية

إلا الغاية التي رميت إليها.. هذا إذا عهد إليك هذا الأمر لمكفوف من درجتك العقلية، فما ظنك لو كان من طبقة العامة الذين لا يدركون الفروق بين مدلولات الألفاظ، ولا الحدود بين مؤديات المعاني، ولا الإطلاق والتقييد، ولا اللازم والملزوم، إلى غير ذلك من ضرورات التعبير؟

ألا تعلم أن الناس سوادهم الأعظم عوام، وأن هؤلاء مادة الأمم وأساسها البعيد الغور، وأن الدين أكثر ما يتوجه إليهم بالمواعظ، وأشد ما يتوعدهم بالمثلات، وأكبر ما يهيجهم إلى طلب المجد، ويثيرهم إلى قلب النظم، فهو من هذه الناحية في حاجة إلى أن يفتح لهم إلى عالم الملأكوة يطلون منها على خيال مما فيه من قوى الحكم والتقدير، وشئون التكوين والتدبير، ونافذة أخرى إلى عالم الحياة الخالدة، يشرفون منها على طيف مما ينتظر الناس في تلك الدار، من ثواب على فضيلة، أو جزاء على رذيلة، فهل تريد أن يكون ذلك الكشف لهم على ما عليه حقيقة الحال، وأقوى العقول وأرقاها لا تستطيع أن تتطاول إليها.. فما ظنك بالدهماء ومنهم الذي لا يدرك ما فوق مأكله ومشربه، ومنهم الذي إن رأى غير ما يعقله نفر منه وازدرى

بالقائلين به؟ قال عليه الصلاة والسلام: «خاطبوا الناس بما يعقلون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟»[1].

فالدين أحوج المعقولات البشرية إلى استخدام المجازات والكنايات والتشبيهات البعيدة. والقياسات مع أكبر الفوارق وأشدها شيوعًا..

إلا أن الإسلام، وهو الدين العام الخالد، قد وضع لهذا الأمر نظامًا، وحدًّ للعقل فيه حدودًا، فلم يغمط الدين حقه في استعمال الألفاظ الموضوعة لتلك الشئون العلوية.، ولم يكلف العقل أن يصير أسير هذه التعبيرات البعيدة عن مؤدياتها كل البعد، فيجعلها لنفسه عقيدة صورية إن سلم بها الناس في جيل شذ عنها أبناؤهم في جيل آخر، فقرر هذا الأصل الأصيل وهو:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾.

(آل عمران/ ٧)

ومعنى هذا أن في القرآن آيات محكمات الوضع، واضحات المعاني، لا يستعصي فهمها على إنسان، ولا تحتاج إلى صرف ألفاظها

---

(١) أورده البخاري في كتاب العلم موقوفًا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه بلفظ «حدثوا الناس بما يعرفون..».

عن ظواهرها، هي أصل الكتاب وأسسه، وعليها يقوم صرح هذا الدين في المعتقدات، والعبادات والمعاملات.، وفيه غير هذه آيات متشابهات، أي محتملات لمعانٍ كثيرة لا تتضح مقاصدها لكونها مجملة أو غير موافقة للظاهر، فهذه في حاجة إلى تأويل.. وهو لا يوصل إلى علم صحيح للعلة التي ذكرناها آنفًا، فأما الذين أشربت قلوبهم الضلالة فيتعللون بظاهر ألفاظها، أو يتناولونها بتأويل باطل، طلبًا لفتنة الناس بالتشكيك أو رجاء أن يفسروها على ما تشتهي أهواؤهم، والحال أنه لا يعلم تأويله إلا الله، وأما المتمكنون من العلم فيقولون آمنا بالكتاب كله، محكمه ومتشابهه، وما يتذكر الضرورة التي تقضي بهذه المحاولات إلا أصحاب العقول.

فالإسلام بهذه الآية قرر بنص لا يحتمل التأويل، أنه لا يطالب الناس إلا بما أتى به محكم الوضع، جلي المعاني.. لا تعترك فيه العقول، ولا تحار في كنهه الأفهام. وأما ما لا يدركه العقل، وما تقصر عن بيانه الألفاظ، وما تذهب المدارك فيه كل مذهب.. فالناس غير مطالبين به، وزاد على ذلك فقرر أنه لا يحاول تأويل تلك الآيات إلا الزيغ، فإنها تتعالى حتى عن التأويل..

فهل معنى هذا أنه حرم التأويل على وجه الإطلاق؟

لا، فإنه قد يكون حتمًا لا مناص منه متى تعارض نصان من



الكتاب، ومتى تعارض نص من الكتاب وعلم صحيح، فمثاله من الأول قوله تعالى:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾(الشورى/ ١١)

وقوله:

﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ ﴾(الفتح/ ١٠)

وقوله:

﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ ﴾(القصص/ ٨٨)

وقوله:

﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾(هود/ ٣٧)

فالآية الأولى تنص على أنه ليس كمثله شيء نصًا لا يحتمل تأويلًا، والآيات الأخر يدل ظاهرها على أن له وجهًا ويدًا وعينًا، وهو ما لا يثلج عليه الصدر، ولا يتفق وحكم العقل، وقد قضت به محسنات التعبير ليس إلا، فهذه يصار فيها إلى التأويل، وقد جرى على ذلك جميع المسلمين إلا طائفة لا يعتد بها دُعِيت بالمشبهة. والإسلام يطلق الحرية لكل عاقل، ولا يسد الطريق في وجه باحث.

وأما النوع الثاني: وهو أن يتعارض ظاهر النص مع حكم العقل والعلم، فهو أجل أصل أتى به هذا الدين، وأمنع وقاية تحميه شر الجمود الذي وقع فيه أهل الأديان كافة، وله أكبر

الأثـر في بقائـه دينًـا عامًـا خالـدًا، وإلا طغـت عليـه تيـارات العلـوم، وتمـردت عليـه قويـات العقـول، فوقفتـه عنـد حـد وسـارت قـدمًا تكشـف المجاهـل، وتقـرر المعـالم، حـرة طليقـة لا يقيـدها شـيء، تاركـة الـدين قاصـرًا علـى مبـانٍ أقيمـت لـه، فيهـا رجـال لا تعـدهم منهـا في شـيء، إلـى أن يعصـف عاصـف جديـد مـن انقـلاب وشـيك فلا يبقي من آثار الدين شيئًا.

ولكن من أية الجهات تستطيع العلوم أن تطغى على الإسلام، ومن أي النواحي تثور العقول عليه؟ أمن مثل قول الكتاب:

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾(الملك/ ٥).

وقوله:

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾(النازعات/ ٣٠)

أي بسطها، وقوله:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾(الحجر/ ٢٩)

وقوله:

﴿ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾(الملك/ ٣)

إلخ إلخ؟ كل هذه الآيات تتناولها القاعدة الأصولية التي انفرد بها هذا الدين وهي: أنه لو تعارض نص وعقل أو علم صحيح، أُوِّلَ النص وأُخِذَ بحكم العقل أو العلم. وقد أول آباؤنا من هذه الآيات ما خالف

عقولهم أو ناقض العلم الصحيح، ونحن نجري على سننهم فنؤل ما يخالف عقولنا منها.

جرى المسلمون الأولون على هذا السمت، فكان تطورهم العلمي يمدهم بالمعلومات، وعلماؤهم يؤولون الآيات حتى تآخى العلم والدين، وسارا كفرسي رهان لا يسبق أحدهما الآخر.. فلم ينقسم الناس إلى فريقين.. فريق للدين يقل كل يوم عددًا وفريق للمدنية يزداد كل يوم مددًا، ولكن كانوا في وحدة لا انفصام لها.. فبلغوا ما لم تبلغه أمة قبلهم من بسطتي الدنيا والدين.

حظ العامة من الإسلام

العامة وإن كانوا أكثر الطبقات عددًا، إلا أنهم لا يستطيعون أن يستقلوا بنظر، ولا أن يؤتمنوا على تفكير.. لذلك كانوا في كل دين وفي ملتنا هذه أتباعًا للخاصة من العلماء العاملين، وأوساط المفكرين، فهم لا يقتضون من بحثنا هذا أكثر من هذه السطور وكل ما لهم في أعناقنا من الحقوق أن نحسن تعليمهم.. ونعمل على نقلهم مما هم فيه إلى ما فوق درجتهم من الدرجات، فإن الإسلام لم يقسم الناس إلى طبقات، ولكنه جعل معارج الترقي شائعة بين المستعدين للعروج عليها، فارتقى إلى أرفع مراتب العلم والفلسفة أفراد من العامة فأصبحوا لملوكهم أئمة.. ولم يستثن الإسلام حتى العبيد السود، فكان منهم علماء أعلام، ووزراء عظام، بل وملوك فخام.

وفي البحث التالي، ننظر في حظ العالمين كلهم على اختلاف أديانهم ونحلهم من هذا الدين.. فهل أصابهم منه شر مستطير، وبلاء كبير كما يحدث من آثار كل انقلاب اجتماعي خطير في بقعة من بقاع الأرض، أم نالهم خير عظيم وانتقال كريم، كما هو شأن كل انقلاب شريف الغايات والمقاصد في الأرض؟.

المحتويات